فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

(قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق)

مصر سلخ شوال ١٣٣٤ ـ ٢ السنبلة (ص ٣٢) ١٢٩٥ هـ ش ٢٩ أغسطس ١٩١٦

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الأزهر شيخنا الأستاذ الإمام)

الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٧) ولو نزّلنا عليك كتابا في قرطاسٍ فلمسوهُ بأيديهم لقالَ الذين كفروا إنْ هذا إلا سحرٌ مُبين (٨) وقالوا لولا أُنزلَ عليه ملَكٌ، ولو أنزلنا ملَكا لقُضيَ الأمرُ ثمّ لا يُنظرون (٩) ولو جعلناهُ ملَكا لجعلناه رجُلاً وللبسنا عليهم ما يَلبِسون

بينا في تفسير الآيات السابقة أن الثلاث الأولى منها قد أرشدت إلى ما دعا اليه الرسول ﷺ من التوحيد والبعث والآيات الدالة عليهما، وان الثلاث التي بعدها أرشدت الى سبب تكذيب قريش بذلك وهو الحق المبين بالدليل مع أن تدرتهم

عاقبة هذا التكذيب ، وهو ما يحل بهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة ، وانه لا يحول دونه ما هم مغرورون به من قوتهم وضعف الرسول ﷺ وتمكنهم في أرض مكة وهي أم القرى وأهلها قدوة العرب ، وقد بين تعالى في هذه الآيات الثلاث شبهات أولئك الجاحدين المعاندين على الوحي وبعثة الرسول ﷺ ثم بهما بيان أسباب جحودهم بأركان الايمان كلها كما سبقت الاشارة إلى ذلك ، وقد روى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن اسحق ما قد يعد سببا لنزول الآية الثانية من هذه الثلاث قال : دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الاسلام وكلمهم فأبلغ اليهم فقال له زمعة بن الاسود بن المطلب والنضر بن الحارث بن كلدة وعبدة بن عبد يغوث وأبي بن خلف بن وهب والعاصي بن وائل بن هشام : لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك - فأنزل الله في ذلك من قولهم (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) ولا تصح هذه الرواية في سبب نزول الآية ، وقد ذكرها السيوطي في الدر المنثور ولم يذكرها في (لباب النقول في أسباب النزول) واقتراح معاندي المشركين إنزال الملك مع الرسول ذكر في الفرقان وهود والاسراء ، وقد روى ان هذه السور الثلاث نزلت قبل الانعام ، والانعام نزلت جملة واحدة - على ما تقدم بيانه في أول تفسيرها - فما فيها من الرد عليهم في هذه المسألة إنما هو رد على شبهة سبقت لهم وحكيت عنهم ، وكذلك اقتراح إنزال كتاب من السماء وإنزال القرآن جملة واحدة فهو في سورة الفرقان .

كان الرسول ﷺ يعجب من كفر قومه به وبما أنزل عليه مع وضوح برهانه وظهور اعجازه ، وكان يضيق صدره لذلك وينال منه الحزن والأسف كما قال تعالى في سورة هود (١١ : ١٢ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك ان يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك) وما في معناه - وكان الله عز وجل يبين له أسباب ذلك ومنشأه من طباع البشر وأخلاقهم واختلاف استعدادهم لهم ان الحجة مهما تكن ناهضة ، والشبهة مهما تكن داحضة ، فان ذلك لا يستلزم الايمان بما قامت عليه الحجة ، وانحسرت عنه غمة الشبهة ، الا في حق من كان مستعداً له ، وزالت موانع الكبر والعناد أو التقليد عنه ، كقوله تعالى (ولو نزلنا عليك كتابا في

قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) جاء بعد تلك الآيات البينات الواردة بأسلوب الحكاية وضمائر الغيبة مبيناً هذا المعنى للرسول بأسلوب الالتفات إلى خطابه ﷺ كأنه يقول : قد علمت أن علة تكذيبهم بالحق إنما هي إعراضهم عن الآيات ، وما أقفلوا على أنفسهم من باب النظر والاستدلال ، لا خفاء الآيات في نفسها ، ولا قوة الشبهات التي تحول دونها ، ألم تر ان آيات التوحيد في الأنفس والآفاق هي أظهر الآيات وأكثرها ، ولم يمنعهم من الكفر بها مبالغة الكتاب المعجز في تقريرها ، ولو اننا نزلنا عليك كتاباً من السماء في قرطاس كما اقترحوا فرأوه نازلا منها بأعينهم ، ولمسوه عند وصوله إلى الأرض بأيديهم ، لقال الذين كفروا منهم كفر العناد والاستكبار : ما هذا الذي رأينا ولمسنا إلا سحر بين في نفسه ، ثابت في نوعه ، وإنما خيل إلينا اننا رأينا كتاباً ولمسناه ، وما ثم كتاب نزل ، ولا قرطاس رؤي ولا لمس ، وكذلك قال أمثالهم في آيات الأنبياء من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا

الكتاب في الأصل مصدر كالكتابة ويستعمل بمعنى المكتوب فيطلق على الصحيفة المكتوب بها وعلى مجموعة الصحف في نسخة واحدة والقرطاس بكسر القاف (وتفتح وتضم لغة) الورق الذي يكتب فيه وقيل هو مخصوص بالمكتوب منه ، وقوله تعالى « في قرطاس » صفة له أو متعلق به . واللمس كالمس ادراك بظاهر البشرة كما قال الراغب وقال الجوهري المس باليد ، والصواب ان الأصل فيه المس بظاهر البشرة وذلك يطلق بمعنى الوقاع كالملامسة ، ولكن لما كان أكثر اللمس باليد وقلما يقع بالقدم أو الساعد مثلا توهم انه خاص بمس اليد ، وتقييد اللمس في الآية بالأيدي يعين المراد منه ويدفع احتمال التجوز به ، إذ اللمس يستعمل مجازاً بمعنى طلب الشيء والبحث عنه ، يقال لمسه والتمسه وتلمسه بهذا المعنى ، ومنه (وأنا لمسنا السماء الدنيا) ويستلزم لمسه بالأيدي رؤيته بالأبصار ، قال قتادة : فعاينوه ومسوه بأيديهم ، وقال مجاهد : فمسوه ونظروا إليه ، والرؤية واللمس أقوى اليقينيات الحسية وأبعدها من الخداع ولاسيما إذا اجتمعا ، والثقة باللمس أقوى لأن البصر قد يخدع بالتخييل ، وقد قال تعالى في سورة الحجر (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا

إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) ولكن مكابرة الحس بعد اجتماع أقوى إدراكيه - وهما الرؤية واللمس - وتقوية أحدهما الآخر قلما يقع إلا من جاحد معاند مستكبر أو من مقلد أعمى لاتتوجه نفسه إلى معرفة شيء يخالف ما تلقاه من آبائه وقومه ، وقال ابن المنير : الظاهر ان فائدة زيادة لمسهم بأيديهم تحقيق القراءة على قرب أي تقرأونه وهو بأيديهم لا بعيد عنهم لما آمنوا ، اه والاول هو الظاهر المختار

والآية تدل على أن السحر خداع باطل ، وتخييل يرى مالا حقيقة له في صورة الحقائق ، ويقول بعض المتكلمين ان السحر من خوارق العادات ، وان الفرق بينه وبين المعجزات إنما هو في اختلاف حال من تصدر الخوارق على أيديهم لا في كون آيات الانبياء حقاً وكون السحر باطلا ، والآية تبطل هذا القول ولا تقوم الحجة بها عليه ، إذ يكون معنى دفع المشركين حينئذ : ما هذا الكتاب الذي نزل على الوجه الذي اقترحنا إلا خارقة من خوارق العادات لاريب فيها ولكنها صدرت على يد ساحر فهي إذاً من السحر ، لا على يد من ادعى النبوة حتى تسمى آية أو معجزة ، فيكون حاصله الطعن في شخص النبي ﷺ وانكار ادعائه النبوة . وهذا المعنى مخالف الواقع على كون عبارة الآية تتبرأ من احتمال دلالتها منها أو دخوله عليها من أحد الابواب الثلاثة (الحقيقة والمجاز والكناية) ولعله لم يخطر على بال أحد يفهم العربية وإن كان من شبهة ذلك المذهب الكلامي الذي فسر السحر بما ذكر خلافاً لظواهر الكتاب والسنة ، فقد نص القرآن على أن السحر تخييل لما ليس واقعاً ، وأنه كيد ومكر ، وأنه يتعلم تعلماً ، والخوارق لاتكون بالتعلم ، وقال تعالى على لسان كليمه موسى (ما جئتم به السحر ان الله سيبطله) وقال في آية أخرى (ليحق الحق ويبطل الباطل) فتعين أن يكون السحر باطلا لاحقا

(وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضي الامر ثم لاينظرون)
اقترح كفار مكة أن ينزل على الرسول ملك من السماء يكون معه نذيراً مؤيداً له أمامهم إذ يرونه ويسمعون كلامه كما في سورة الفرقان (٢٥ : ٧) وما بعدها ، وما قبلها

حكاية لما هنالك فانك لم يقل « ملك فيكون معه نذيراً » اكتفاء بما سبق ، بل اقترحوا أيضاً أن ينزل الملك عليهم بالرسالة من ربهم ، بل طلبوا أكبر من ذلك: طلبوا أن يروا ربهم ويخاطب كل واحد منهم بما يريد من إرسال الرسول إليهم ، كما في سورة الفرقان أيضاً (٢٥ : ٢١) وقد قال الله في هؤلاء (لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيرا) ثم إن هذا منتهى الكبرياء والعتو لأنه تمام واستشراف من أضل البشر وأسفلهم روحا إلى ما لم يصل إليه أعلام مقاماً في هذه الحياة الدنيا . وأما اقتراحهم نزول الملك على الرسول فهو مبني على ضد ما بني عليه طلبهم لنزول الملائكة عليهم أو رؤية ربهم هو مبني على اعتقاد أن أرقى البشر عقلا وأخلاقاً وآداباً وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام ليسوا أهلا لأن يكونوا وسطا بين الله وبين عباده لأنهم بشر يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق - هذه شبهة المتقدمين منهم والمتأخرين : قال تعالى في هود وقومه (٢٣ : ٣٣ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون (٣٤) ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون) وحكى تعالى مثل هذا عن غيرهم في هذه السورة (سورة المؤمنين) وفي غيرها .

ومثل هذا التناقض والتضاد في حكم البشر لأنفسهم وعليها معهود في كل زمان وكل مكان ، فهم يرفعون أنفسهم تارة إلى ما هو أعلى من قدرها بالايحصى من الدرجات والمسافات البعيدة السحيقة ، ويهبطون بها تارة إلى ما هو دون استعدادها بمالا يعد من الدركات العميقة ، يتسامون تارة للبحث في عالم الغيب من الازل الذي لا يعرفون أوله ، إلى الابد الذي لا يدركون نهايته ، والكلام في كنه الخالق ، وفي كيفية صدور الوجود الممكن عن الوجود الواجب ، ويعترفون تارة بالعجز عن معرفة كنه أنفسهم ، والتصور عن الاحاطة بأنواع الجنة (١) التي تعيش في بيئتهم ، و تؤثر في جميع المواد المحتاجين إليها في معيشتهم . يقولون تارة إن هذا الانسان سيد الاكوان ، ومصداق قول الغزالي : ليس في الامكان أبدع مما كان ،

(١) الاحياء الدقيقة التي لا ترى بالبصر المجرد المعروفة بالمكروبات

ويقولون تارة انه مظهر الظلم والخلل والفساد ، وإنما يعظم أحدهم نفسه أو جنسه في مرآة نفسه ، ويحقر غيره أو نفسه متمثلة في مرآة جنسه ، ومن هذا الباب انكار الكفار لبعثة الرسل ، وكانوا تارة يكتفون بجعل البشرية علة الانكار كما ترى في سورة هود وابراهيم والاسراء والمؤمنين ويس والقمر والتغابن ـ وتارة يصرحون بحق أنفسهم من الكبر واستثقالهم تفضيل الرسل على أنفسهم بإتباعهم إياهم ، وعلى هذا بنوا اقتراح نزول الملائكة عليهم مباشرة أو على الرسل مؤيدة لهم كقول قوم نوح (٢٣ : ٢٤ ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة)

جمع مشركو مكة بين الاقتراحين ـ كما تقدم آنفا ـ اقتراح نزول الملائكة عليهم ، واقتراح نزول ملك على النبي يرونه بأعينهم ، ولولا هذا القيد لم يكن للاقتراح فائدة ؛ لأن النبي ﷺ كان أخبرهم بأنه ينزل عليه الملك ، وكأنهم ظنوا ان مساواتهم له ﷺ في البشرية تقتضي مساواته في الاستعداد لرؤية الملائكة وتلقي العلم عنهم ، وهذه أخرى تشبهها [illegible] لغرورهم بأنفسهم ينكرون كل مالا يصلون إليه بأنفسهم

وقد رد الله تعالى عليهم الاقتراحين من وجهين (أحدهما) أنه لو أنزل ملكا كما اقترحوا لقضى الأمر بإهلاكهم ثم لا ينظرون أى لا يؤخرون ولا يمهلون ليؤمنوا بل يأخذهم العذاب عاجلا كما مضت به سنة الله فيمن قبلهم ، قال ابن عباس في تفسير الآية : ولو أتاهم ملك في صورته لأهلكناهم ثم لا يؤخرون ، وقال قتادة يقول : لو أنزل الله ملكا ثم لم يؤمنوا لعجل لهم العذاب ، ولكن قال مجاهد في قوله لقضى الأمر : أى لقامت الساعة ، وذكر المفسرون في تفسير قضاء الأمر هنا عدة وجوه (١) ان سنة الله في أقوام الرسل الذين قامت عليهم الحجة انهم كانوا إذا اقترحوا آية وأعطوها ولم يؤمنوا يعذبهم الله بالهلاك والاستئصال الذى تتولى تنفيذه الملائكة ، والله تعالى لا يريد أن يستأصل هذه الأمة ، التى بعث فيها خاتم رسله نبي الرحمة ، فالرحمة العامة تنافى هذا العذاب العام (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (٢) ان المراد انهم لو شاهدوا الملك بصورته الاصلية كما يطلبون لزهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون (٣) ان رؤية الملك بصورته آية ملجئة يزول بها الاختيار الذى هو

قاعدة التكليف ـ وهذا على قاعدة المعتزلة ، وعبارة الزمخشري في هذه المسألة من تعليلات قضاء الأمر : وإما لأنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة فيجب إهلاكهم (٤) أنهم لما اقترحوا مالا يتوقف عليه الإيمان ـ إذ يتوقف على المعجز مطلقاً وقد حصل لا المعجز الخاص الذي طلبوه ـ فاذا أعطوه كانوا على غاية الرسوخ في العناد المناسب للاهلاك وعدم النظرة ، وأول هذه الاقوال أقواها وأصحها آخرها ، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى في سورة الحجر (ماننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين) أي ما كان شأننا الذي مضت به سنتنا أن ننزل الملائكة إلا بالأمر الحق وهو الرسالة للرسل أو العذاب للأمم الذين يعاندون الرسل فيقترحون عليهم الآيات المخصوصة ويعلقون إيمانهم عليها ثم يصرون على جحودهم وكفرهم بعد أن يعطوها ، فلو نزلت الملائكة عليهم ما كانوا إذ تنزل إلا هالكين لا ينظرون أي لا يؤخرون طرفة عين ، وما كان الله ليهلك هذه الأمة ، ولا من أسلم منها من قوم نبي الرحمة ، بإجابة اقتراحات أولئك المستكبرين المعاندين لعلمه أنهم إنما يقترحون الآيات لأجل التعجيز دون استبانة الاعجاز ، وهو يعلم أنهم لو أعطوها ما كانوا بها مؤمنين ، وبذلك مضت السنة في أمثالهم من الغابرين

ومن نكت البلاغة مابينه الزمخشري من حكمة العطف بثم وهي إفادة ما بين قضاء الأمر وعدم الانظار من البعد : جعل عدم الانظار أشد من قضاء الأمر ، لان مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة .

(الوجه الثاني) في الرد عليهم قوله تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون) أي لو جعل الرسول ملكا لجعل الملك متمثلا في صورة البشر ، ليمكنهم رؤيته وسماع كلامه الذي يبلغه عن الله تعالى ، ولو جعله ملكا في صورة البشر لاعتقدوا أنه بشر لأنهم لايدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التي تمثل بها ، وحينئذ يقعون في نفس اللبس والاشتباه الذي يلبسونه على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشراً ، ولا يمكنون يقترحون جعله ملكا ، وقد كانوا في غنى عن هذا ، وإنما شأنهم فيه شأن أكثر الناس حتى العلماء منهم فيما يوقعون

فيوم أنفسهم من المشكلات بسوء اختيارهم، وما يخترعونه من الشبهات بسوء فهمهم، ثم يحارون في أمر المخرج منها. مادة ل ب س تدل على الستر والتغطية، يقال لبس الثوب يلبسه (بكسر الباء في الماضي وفتحها في المضارع) وهو من الستر الحسي، ويقال لبس الحق بالباطل يلبسه (بفتح باء الأول وكسر باء الثاني) بمعنى ستره به أي جعله مكانه ليظن انه الحق، ولبست عليه أمره أي جعلته بحيث يلتبس عليه فلا يعرفه - وهذا كله من الستر المعنوي

وقد علل جمهور المفسرين جعل الملك بصورة البشر في هذه الحالة بأن البشر لايطيقون رؤية الملائكة في صورتهم الاصلية، وتقدم في تفسير الآية السابقة قول من علل بذلك قضاء الأمر بيلا كهم بمجرد نزول الملك، واستدلوا على ذلك بتمثل الملائكة لابراهيم ولوط بصورة الناس وتمثل جبريل لمريم بشراً سوياً، وظهوره للنبي ﷺ بصورة دحية الكلبي غالبا وبصورة غيره أحياناً كما في حديث الايمان والاسلام وغيره، وذكر بعضهم من خصائص النبي ﷺ انه رآه في صورته الاصلية مرتين فقط، وقد [illegible] ﷺ إذ لا يثبت ذلك إلا بنص ولا نص في المسألة وإنما ورد من حديث ابن مسعود عند الامام أحمد وحديث عائشة عند الترمذي انه لم يره في صورته التي خلقه الله عليها إلا مرتين، وقد ورد ان من الصحابة من رأى الملائكة في غير صورة البشر كرؤية أسيد بن حضير لمرق مثل الظلة فيها أمثال المصابيح كما رواه الشيخان عنه، ولكن هذا تمثيل أيضا

والمختار عندنا أن البشر في حالتهم العادية غير مستعدين لرؤية الملائكة والجن في حالتهم التي خلقوا عليها كما قال تعالى في الشيطان (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) لأن أبصار البشر لاتدرك كل الموجودات بل تدرك في علمها هذا بعض الاجسام كالماء وما هو أكثف منه من الاجرام الملونة دون ماهو ألطف منه كالهواء وماهو ألطف منه كالعناصر البسيطة التي يتألف منها الماء والهواء، والملائكة والجن من عالم آخر غيبي، وهذا العالم مما يعده المتكلمون في الفلسفة وراء عالم المادة وليس عند المسلمين عالم غير مادي، ولذلك يعدون الملائكة والجن من الاجسام اللطيفة، ويقولون انهم قادرون على التشكل في صور الاجسام الكثيفة فقال تشكلهم

كما تتشكل الماء في صورة البخار اللطيف والبخار الكثيف وصورة المائع السيال وصورة الثلج والجليد ، وكما أن الماء يتشكل بما يطرأ عليه من حر وبرد بغير اختيار منه ، وذانك يتشكلان باختيارهما إذ جعل الله لهما سلطاناً على العناصر التي تتركب منها مادة العالم أقوى من سلطان البشر الذين يتصرفون فيها بأيديهم لا بأنفسهم وماهياتهم ، فهم لا يقدرون على تحليل أبدانهم وتركيبها مع غيرها من المواد ، فاذا تمثل الملك أو الجان في صورة كثيفة كصورة البشر أو غيرهم أمكن البشر أن يروه ، ولكنهم لا يرونه على صورته وخلقته الاصلية بحسب المادة وسنة الله في خلق عالمه وعالمهما فاذا وقع ذلك كرؤية النبي ﷺ لجبريل مرتين كان من خوارق العادات ، والخوارق لا تثبت إلا بنص ، لانها خلاف الاصل ، وقد يقال إن رؤيته بصورته لا تنافي التشكل ، إذ يجوز أن تكون مادة صورته اللطيفة التي لا ترى قد ظهرت بمادة كثيفة فيكون التشكل في هذه الحالة بمادة جديدة مع حفظ الصورة الاصلية ، والتشكل في غيرها بالمادة والصورة معاً ، على أن الارواح البشرية من ... أرواح الملائكة ما ليس لغيرها ، في الحال التي تتغلب ... يكونون كالملائكة فيجوز أن يروهم بأي صورة وشكل تجلوا لهم فيه

هذا وإن ما لا يرى قد يدرك بضرب من ضروب الادراك غير الرؤية فاذا كان الملك مخلوقاً عاقلا عالما وكان في لطافته من قبيل الارواح البشرية التي هي محل العلم والادراك في البشر فلم لا يجوز أن يكون لهذين النوعين من الارواح الموجودة في هذا الكون نوع من الاتصال يقتبس به أحدهما من الآخر شيئاً من العلم ، كما يقتبس البشر بعض العلم البشري من الجو إذ يبث الاخبار فيه بعضهم بالآلات الكهربائية (المعروفة بالتلغراف اللاسلكي ، أو الاثيري والهوائي) ويقتبسها آخرون؟ على ثبت أن الانفس البشرية يقتبس بعضها العلم من الموجودات - بشراً كانت أو غير بشر - بغير واسطة الحواس والاستنباط العقلي كما روى بعض الاطباء الذين كانوا ينكرون مثل هذا عن مريض كان يعالجه في القاهرة انه قال إن فلاناً — وذكر قريباً له في الاسكندرية — يريد أن يسافر الآن إلى مصر لأجل هيادق ، ثم انه عين القطار الحديدي الذي ركب فيه ثم الوقت الذي وصل فيه إلى

محطة مصر ثم لم تمكن الا مسافة سير المركبة بين المحطة ودار المريض إلا وقد وصل هذا القريب ، وكان ينتظره لاستبانة المكاشفة ذلك الطبيب ، وروى عنه غير ذلك من المكاشفات ، ومثل هذا يقع كثيراً في كل عصر ، فلم لا يجوز أن يقتبس البشر العلم بمثل هذه المكاشفة من الملائكة وأرواح البشر المهذبين كما يقتبسونها من أحياء البشر ومن غير البشر من الاشياء ؟

نقول إن هذا جائز عقلا ومروي نقلا ، ولكنه كسائره يتوقف على الفاعل والقابل ، فاذا تدبرنا ماورد في الكتاب والسنة من خبر الوحي والالهام يظهر لنا منه أن الانسان ليس له سلطان على ملائكة السماء ، كسلطانه على ما في الارض من أبناء جنسه وسائر الاشياء ، فلا يستطيع كل فرد من أفراده أن يحرك هؤلاء الملائكة ويقتبس منهم العلم شاءوا أم أبوا ، ولكن بعض الارواح البشرية قد تصل بطهارتها وعلو مكانتها إلى قابلية التلقي من الملائكة ، لما بينها وبينهم من القرب والمناسبة ، وهذه القابلية نوعان

(النوع الاول) ما يختص به الله تعالى أنبياءه ورسله بدون سعي منهم ولا كسب ، فيؤهلهم للنبوة والرسالة ، وينزل عليهم الملائكة بالروح من أمره ، فلا القابل الذي يتلقى عن الملك يكون له كسب أو اختيار فيما يوحى اليه ، ولا الفاعل ، وهو الملك الذي ينزل بالوحي يكون له اختيار فيما يوحيه ، بل يفعل ما يأمره الله تعالى به ولا يستطيع أن يعصيه ، ولكمال استعداد الانبياء وعلو أرواحهم يرون الملائكة في صورهم الاصلية قليلا . ويتمثل الملك لهم بصورة البشر أو يلابسهم ملابسة روحية فيلقي في أرواحهم ماشاء الله أن يلقيه وهو الاكثر ، وهذا النوع قد ختم وتم ببعثة محمد خاتم النبيين ، عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وما هو من شئون البشر الكسبية ، فيبقى ببقائهم .

(النوع الثاني) ما يمنحه الله تعالى من التثبيت في الحق والالهام لمن دون الانبياء من خيار خلقه الذين سلمت فطرتهم ، وصفت سريرتهم ، وزكت بالعمل الصالح أنفسهم ، حتى غلبت فيها الصفات الملكية ، على النزعات الحيوانية والنزعات الشيطانية ، فالارواح البشرية العالية ، قد تقوى المناسبة بينها وبين الملائكة ،

فتستفيد من أرواح الملائكة قوة في الخير والحق ، وثباتاً على الصلاح والجهاد ، (إذ يوحي ربك إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا) وقد تستفيد منها علما بالحق وبشارة بالخير ، وهو ما يسمى التحديث والالهام ، ومنه بشارة الملائكة لمريم بعيسى عليه السلام وتمثل جبريل لها عند ما أراد الله أن تحمل بنفخه فيها ، وقد ثبت في الحديث الصحيح ان عمر بن الخطاب كان من المحدثين الملهمين ، وقد عبر النبي ﷺ عن ملك الالهام بأنه « واعظ الله في قلب كل مؤمن » في حديث النواس بن سمعان عند أحمد والترمذي ، ويوضحه حديث ابن مسعود « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله تعالى فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان » رواه الترمذي والنسائي في السنن الكبرى وابن حبان في صحيحه ، ورمز عليه في الجامع الصغير بالصحة .

وقد أطال الاستاذ الامام في ايضاح هذا المطلب في كتاب شرح عجائب القلب من الاحياء ، وتفسير سورة البقرة من اجزاء المنار ما لا بحث فيه . والماديون المحجوبون ينكرون مثل هذا « ومن جهل شيئا عاداه » ولو قيل لمن كان على شاكلتهم قبل اكتشاف هذه الجنة (الميكروبات) ان في العالم أنواعاً كثيرة من المخلوقات الخفية التي لا يمكن أن يراها أحد بعينيه هي سبب الادواء والامراض التي لا تحصى ، وهي سبب التنبهات والاختمارات التي تراها في المائعات والعواكه وغيرها - لقالوا إنما هذه خرافة من الخرافات . وقد كان غير المؤمنين يعدون من هذا القبيل حديث أبي موسى « الطاعون وخز أعدائكم من الجن وهو لكم شهادة » رواه الحاكم وصححه . ثم صاروا بعد اكتشاف باشلس الطاعون يتعجبون من صدق كلمة الجن على ميكروب الطاعون كغيره ، وقد ورد أن الجن انواع منها ما هو من الحشرات وخشاش الارض كما في الفتاوى الحديثية لابن حجر الفقيه

وقد بين الاستاذ الامام النوع الاول في رسالة التوحيد أكمل بيان ، وبأوضح برهان ، واختصر في بيان النوع الثاني فقال :

« أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء ، ممن لم تدن مراتبهم

من مراتب الانبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الانس ، بما يقارب تلك الحال في النوع أو الجنس لهم مشارفة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لاتنكر عليهم لتحقق حقائقها في الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئا مما يحدث به عن الانبياء صلوات الله عليهم . ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف ، ودليل صحة مايتحدثون به وعنه ظهور الاثر الصالح منهم وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح ، أو يمجه الذوق السليم ، وانبعاثهم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم ، المتلألئ في بصائرهم ، إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة ، ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ، ويسوء مآلهم ، ومآل من غرروا به ، ولا يكون إلا سوء الاثر في تضليل العقول وفساد الاخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا [illegible] كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار [illegible] المنكرين لاحوال الانبياء ومشاهدهم وبين الاقرار بامكان ما أثبتوا [illegible] ووقوعه إلا حجاب من العادة ، وكثيرا ما حجب العقول حتى عن إدراك أمور مشاهدة »

---

(١٠) ولقد استُهزِئَ برُسُلٍ من قبلك ، فحاق بالذين سخِروا منهم ما كانوا به يستهزِءون (١١) قل سيروا في الارضِ ثمّ انظروا كيف كان عاقبةُ المكذّبين

بعد أن بين الله تعالى تخاتم وسلم سنته في شبهات الكفار المعاندين على الرسالة وإصرارهم على الجحود والتكذيب بعد إعطائهم الآيات التي كانوا يقترحونها وعقابه تعالى إياهم على ذلك ـ بين له شأنا آخر من شئون أولئك الكفار مع رسلهم وسنته تعالى في عقابهم عليه فقال

(ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون)

« الهنة » ظاهر كلام نقلة اللغة أن الهزء (بضمتين وبضم فسكون) والاستهزاء بمعنى السخرية وأن قولهم هزئ به واستهزأ به مرادف لقولهم : سخر منه ، ويفهم من كلام بعض المدققين ان الحرفين متقاربا المعنى ولكن بينهما فرقاً لا يمنع من استعمال كل منهما حيث يستعمل الآخر كثيراً . قال الراغب : الهزؤ مزح في خفية « كذا ولعل صوابه : في خفة » وقد يقال لما هو كالمزح ، فما قصد به المزح قوله (اتخذوها هزواً ولعباً ـ وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً ـ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً) والاستهزاء ارتياد الهزؤ وإن كان قد يعبر به عن تعاطي الهزؤ ، كالاستجابة في كونها ارتياداً للاجابة وان كان قد يجري مجرى الاجابة . قال (قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ـ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) الخ ـ وقال : وسخرت منه واستسخرته للهزؤ منه . وقال الزمخشري في أوائل تفسير سورة البقرة : والاستهزاء السخرية والاستخفاف ، وأصل الباب الخفة من الهزء وهو القتل السريع ، وناقته تهزأ به أي تسرع وتخف ... وقال في الأساس : ... واستخف به ... وقال فيه : فلان سُخرة مُسخرة : يضحك الناس ويضحكون منه

أقول : فيؤخذ من هذا ومن استعمال الناس لكلمة الهزؤ والاستهزاء إلى اليوم ان معنى الاستهزاء بالشيء الاستخفاف والاستهانة به ، والاستهزاء بالشخص احتقاره وعدم الاهتمام بأمره ، وكثيراً ما يصحب ذلك السخرية منه وهي الضحك الناشيء من الاستخفاف والاحتقار ، أو ما شأنه أن يثير هذا الضحك من قول وعمل ، فمن حاكى امرءاً في قوله أو عمله أو زيه أو غير ذلك من شؤونه محاكاة انتقاد واحتقار فقد سخر منه ، فالسخرية تستلزم الهزؤ والاستخفاف ، وهي خاصة بالأشخاص دون الأشياء .
وقد يوجد الاستهزاء بغير سخرية ، كأكثر ما حكاه الله تعالى من استهزاء الكفار بآيات الله معناه الاستهانة بأمرها ، وأنهم لم يقدروها قدرها ، ولم يرد قط بمعنى أنهم كانوا يضحكون منها ، ولما أمر موسى بني إسرائيل بذبح بقرة (قالوا أتتخذنا هزواً) ويظهر في معنى الهزؤ هنا ما قاله الراغب من أنه المزاح الذي سببه الاستخفاف وقال تعالى « فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون » وقال في نوح « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه »

الآية . روى أنهم كانوا يضحكون من قوله ويستجهلونه به .

وحاق به المكروه يحيق حيقاً وحيوقاً أحاط به فلم يكن له مخرج منه

(المعنى) أخبر الله تعالى رسوله خبراً مؤكداً بالقسم أن الكفار قد استهزؤا برسل كرام عظام من قبله ، فتنكير « رسل » في الآية للتعظيم فلا ينافي عموم الاستهزاء المبين في قوله تعالى (ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون) — فما يراه من استهزاء طغاة قريش به واستخفافهم بأمره ليس ببدع جديد بل اتبعوا به سنن من قبلهم من أعداء الرسل المعاندين لهم ، — وأن الذين انتهى بهم ذلك الاستهزاء إلى السخرية والضحك من الرسل فكانوا يسخرون بهم ويضحكون منهم ، استخفافاً بأمرهم وتكذيباً لنذرهم ، قد حاق بهم عقب اتخاذهم الرسل سخرياً جزاء ذلك الأمر الذي كانوا يستهزءون به ، ذلك الاستهزاء ، الذي أفضى بهم إلى ضحك الازدراء ، بما قصدوا من قابلية الاعتداء ، بأن أحاط بهم العذاب الذي أنذرهم إياه الانبياء ، أو حاق بهم نفس ذلك الأمر الذي كانوا يستهزءون به بمعنى انه كان سبب تعذيبهم وإهلاكهم — فلا يحزنك ... تسلية للنبي ﷺ وتخفيف عنه من إيذاء قومه ، وبشارة له بحسن العاقبة ، وبما سيكون له من إدالة الدولة ، وإن كان جزاء المستهزئين بمن قبله من الرسل عذاب الخزي بالاستئصال ، ولكن الله كفاه المستهزئين به فأهلكهم ولم يجعلهم سبباً لهلاك قومهم ، وامتن عليه بذلك في سورة الحجر إذ قال (إنا كفيناك المستهزئين) والمشهور أنهم خمسة من رؤساء قريش هلكوا في يوم واحد

ولما كان كون أمر المستهزئين بالرسل إلى الهلاك بحسب سنة الله المطردة فيهم مما يرتاب فيه مشركو مكة الذين يجهلون التاريخ ، ولا يأخذون خبر الآية فيه بالتسليم ، أمر الله تعالى رسوله بأن يرشدهم إلى الطريق الذي يوصلهم الى علم ذلك بأنفسهم فقال

(قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أي قل أيها الرسول المكذبين بك من قومك الذين قالوا : لولا أنزل عليه ملك : سيروا في الارض كشأنكم وعادتكم ، وتنقلوا في ديار أولئك القرون الذين مكناهم في الارض ومكنا لهم فيها ما لم نمكن لكم ، ثم انظروا في أثناء كل رحلة من رحلاتكم آثار ما حل بهم من الهلاك ، واعلموا كيف كانت عاقبتهم بما تشاهدون من آثارهم ، وما تسمعون

من أخبارهم ، وإنما قال «عاقبة المكذبين» ولم يقل «عاقبة المستهزئين» أو الساخرين - والكلام الأخير في هؤلاء، لأن جميع المكذبين - لأن الله تعالى أهلك من القرون الاولى جميع المكذبين ، وإن كان السبب المباشر للاهلاك اقتراح المستهزئين الآيات الخاصة على الرسل ، فما أعطوها كذب بها المستهزئون المقترحون وغيرهم من الكافرين الذين كانوا مشغولين بأنفسهم ومعايشهم عن مشاركة كبراء مترفيهم بالاستهزاء والسخرية ، وإذا كان المكذبون قد استحقوا الهلاك وإن لم يستهزءوا ولم يسخروا فكيف يكون حال المستهزئين والساخرين ؟ لا ريب انهم أحق بالهلاك وأجدر ، ولذلك أهلك الله المستهزئين من قوم نبي الرحمة ولم يجبهم إلى ما اقترحوه لئلا يعم شؤمهم سائر المكذبين معهم ، ومنهم المستعدون للايمان الذين اهتدوا من بعد

ومن نكت البلاغة في الآية انه قال فيها «ثم انظروا» وقد ورد الامر بالسير في الارض والحث عليه في آيات أخرى من عدة سور وعطف عليه الامر بالنظر بالفاء (راجع ٩٩ من سورة النمل و ٢٢ من سورة الروم و ١٠٩ من سورة يوسف و ٤٤ من سورة فاطر الخ) قال الزمخشري في نكتة الفرق بين التعبيرين : (فان قلت) أي فرق قوله «فانظروا» وقوله «ثم انظروا» (قلت) جعل النظر مسبباً من السير في قوله «فانظروا» فكأنه قيل سيروا لاجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين ، وأما قوله «سيروا في الارض ثم انظروا» فمعناه إباحة السير في الارض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح اه

وقال أحمد بن المنير في الانتصاف : وأظهر من هذا التأويل أن يجعل الامر في المكانين واحداً ليكون ذلك سبباً في النظر ، فحيث دخلت الفاء فلاظهار السببية وحيث دخلت ثم فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير ، وان السير وسيلة إليه لا غير ، وشتان بين المقصود والوسيلة . والله أعلم اه

وفي روح المعاني عن بعضهم ان التحقيق انه سبحانه قال هنا «ثم انظروا» وفي غير ما موضع «فانظروا» لأن المقام هنا يقتضي «ثم» دونه في هاتيك المواضع ، وذلك لتقدم قوله تعالى فيما نحن فيه (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم

فى الأرض) مع قوله سبحانه وتعالى (وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) والأول يدل على أن الهالكين طوائف كثيرة. والثانى يدل على أن المنشأ بعدهم أيضاً كثيرون، فيكون أمرهم بالسير دعاء لهم إلى العلم بذلك، فيكون المراد به استقراء البلاد، ومنازل أهل الفساد على كثرتها، ليروا الآثار فى ديار بعد ديار وهذا مما يحتاج إلى زمان ومدة طويلة تمنع من التعقيب الذى تقتضيه الفاء، ولا كذلك فى المواضع الأخر. انتهى

قال الآلوسى بعد إيراده: ولا يخلو عن دغدغة، واختار غير واحد أن السير متحد هناك وهنا ولكنه أمر ممتد يعطف النظر عليه بالفاء تارة نظراً إلى آخره، وبثم أخرى نظراً إلى أوله، وكذا شأن كل ممتد اهـ ما أورده الآلوسى، والظاهر فى الأخير أن يكون العطف بالفاء نظراً إلى الأول وبثم نظراً إلى الآخر عكس ما ذكره فتأمل

ثم أقول: ولعل من يتأمل ما وجهنا به الكلام فى تفسير الآية، قبل النظر فى هذه النكت كلها يرى أنه هو المتبادر من النظم بغير تكلف، وإنه يشبه أن يكون مستنبطاً من مجموع تلك النكت، مع زيادة عليها تقتضيها حال المخاطبين بالأمر بالسير هنا وهم كفار مكة القاعدون الكثيرو الأسفار للتجارة الغافلون عن شئون الأمم والاعتبار بعاقبة الماضين وأحوال المعاصرين

آراء الخواص فى المسألة العربية

(واستقلال الشريف فى الحجاز)

فى ليالى رمضان وأيام عيد الفطر تيسر لى أن أعرف من آراء أهل العلم والرأى بمصر فى المسألة العربية واستقلال الشريف أمير مكة فى الحجاز ما لم يكن يتيسر فى وقت آخر من السنة، لكثرة التزاور فى هذه الليالى والأيام، وتوسع الناس فيها بالكلام كتوسعهم بالطعام، وقد جرت فيها بيننا وبين كثير من أساتذة الأزهر والمدارس العليا وكبار القضاة والمحامين والأطباء وغيرهم من أهل الرأى مذاكرات

ومحاورات طويلة فى هذه المسألة جديرة بأن تنشر وتدون لأنها ربما كانت أهم مسائلنا الحاضرة ، ووقائع تاريخنا التى نحفظها لأعقابنا الآتية ، فرأينا أن ننشر فى المنار أطول محاورة منها وأجمعها للمقاصد ، ثم نلخص فى الخاتمة صفوة الآراء كلها ، وبذلك تتم الفائدة من تلك الأحاديث بغير تكرار ولا عبث . وهذه المحاورة كانت بيننا وبين أستاذ معروف باعتدال الفكر واستقلال الرأى ، وقد وقعت فى اليوم الثانى بعد عيد الفطر ، وها هى ذى ـ وقد عبرنا عن الأستاذ بحرف ذ وعن نفسنا بحرف ر :

ذ — ما رأى الأستاذ فى استقلال الشريف أمير مكة بالحجاز ، فإنى رأيت كثيراً من إخواننا ومعارفنا لا يعد ذلك أمراً ذا بال ، ومنهم من لم يصدق أخبار الجرائد ، حتى ان أخانا الشيخ .أ. قال لى فى إحدى ليالى رمضان عقب نشر البلاغ الرسمى من استقلال الشريف إنه لا يعرف أحداً صدّق هذا الخبر من قبل ، وإنه هو لم يصدقه أيضاً إلا بعد نشر البلاغ الرسمى ، وإن من الناس من لا يصدق البلاغ الرسمى نفسه ، ... ولا أظنك تقول ان هذا الأمر ليس بشىء

ذ ـ صدقت ، ان هذا الأمر لذو بال ، وإنه قد شغل منى البال وهيج البلبال . وانى لأعجب لهؤلاء الناس الذين أصبحوا لا يهتمون بشىء من الأشياء ، ولا يصدقون من الأنباء الا ما يلذ لهم ، ولا يقبلون من الآراء الا ما يوافق أهواءهم ، ولذلك راج بينهم رأى تلقوه بالقبول ، وهو ان الشريف لم يعلن الاستقلال الا لضرورة انقاذ البلاد من المجاعة التى أوقعها فيها الحصر البحرى أو كاد ، فقد امتنع بذلك وصول الأقوات اليها من مصر والسودان والهند وجل قوتها من هذه البلاد ، حتى قيل ان أردب القمح صار فى مكة ببضعة جنيهات ، فعذر الشريف فى اظهار دعوى الاستقلال جلى ظاهر ، وهو لا يزال مخلصاً للحكومة التركية فى الباطن وليس له غرض فى ايجاد حكومة عربية ، ولا طمع فى خلافة قرشية ، ولولا ذلك لقاتلته الدولة . هذا هو الرأى الرائج فى البلد .

أما أنا فلا أجزم بقبول هذا الرأى ولا برده ، وان كان معقولا فى نفسه ، ولا فى أعلم أنه قد وجد فى عالم السياسة مسألة تسمى المسألة العربية ، ولكن لم أقف على

كنهها ومبلغ قوتها ، ولا على مكانها من الشريف ومكان الشريف منها ، وأعلم أيضاً أن الحجاز ليس فيه الاستعداد المطلوب لانشاء دولة ، ولا القوة التي يتوقف عليها استقلال الخلافة ، وحياة أهله موقوفة على الدولة التي تملك التصرف في البحار والدولة ذات السيادة على بلاد الشام ، فاذا منع عنه القوت من هنا وهناك مات أهله جوعاً ، ثم إن المشهور أن أمراء جزيرة العرب وزعماءها متحاسدون متباغضون « بأسهم بينهم شديد » ولولا سيطرة الدولة العثمانية عليهم لأفنى بعضهم بعضاً . والشريف - إذا كان يأمن بطش الدولة الآن فهو لايجهل انها إذا بقي لها استقلالها بعد هذه الحرب أمكنها الانتقام منه وإزالة امارة الحجاز وجعله ولاية عثمانية محضة . واذا زال استقلالها وفرضنا انه أمن على استقلاله من صاحب عسير وصاحب نجد فانه ليس بالذي يكون الملك المستقل الذي يطلبه العرب ، ولا بالذي يجدد الخلافة الاسلامية التي يحرص على استقلالها جميع مسلمي الارض ، لان الاستقلال بأمر الملك والخلافة يتوقف على [illegible] وأين الحجاز منها ؟

فهذه الأفكار [illegible] عند (السيد) من أخبار هذه المسألة والاختبار فيها ماليس عندي ولا عند احد من المصريين ، فهو أعلم منا بشؤون جزيرة العرب وشؤون أمرائها ، وأعلم منا بظاهر الحركة العربية وباطنها وأحوال أحزابها وجمعياتها . كما أنه أوسع منا علماً بأحوال الدولة العلية وأوسع اختباراً لها وأكثر تتبعاً لما يتجدد من أخبارها ، يعترف له بهذا من يقرأ بروية وامعان ما يكتبه في هذه المسائل في مجلته ، واني أود أن أقف على ما عنده في مسألة الحجاز من رأي ورواية بالتفصيل ، وقد تعرضت لهذا غير مرة فلم تمكن حالة المجلس أو الوقت ما يسمح للسيد بالافاضة في ذلك ، فعسى أن نستفيد الآن ما فاتنا من قبل

د - لم أنس ان باب الحديث في هذه المسألة قد فتح بيننا مرتين قبل هذه المرة فكان الكلام فيها وجيزاً لضيق وقته ، على أن الحديث شجون ، والانسان يتذكر في وقت ما ينساه في آخر ، فاذا ذكره عنده تذكر ، واني لا أبخل على الاستاذ بما عندي في هذه المسألة من رأي أو خبر أرى فيها فائدة له ، فاذا حدثته بشيء لم يره كافياً فله أن يستزيدني من الحديث بالسؤال عما يريد منه ، ولا بأس

بإعادة شيء مما كنا ألممنا به من قبل ، وأبدأ ببيان ما عندي في مسألة استقلال الشريف فأقول :

ان الشريف لم يدع ملكا ولا خلافة فلا كلام لنا في ذلك وما ذكرته لي من الرأي الذي دار بين كثير من المصريين في سبب استقلاله في الحجاز وتلقوه بالقبول قد سمعته من غيرك أيضاً . وهو رأي كما قلت معقول ، وعذر الشريف فيه مقبول ، ولاسيما ان كان الاستقلال صورياً كما تظنون ، فانه مسؤول عند الله وعند الناس عن إنقاذ سكان حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ من الهلاك ، وإزالة الموانع التي منعت أكثر المسلمين من الحج إلى بيت الله الحرام ، ولا سبيل إلى هذا وذاك إلا بإزالة الحصر البحري عن ثغور الحجاز ، الذي كان سببه وجود الجنود التركية فيها ، فان دولة انكلترة كانت صرحت باستثناء سواحل الحجاز من الحصر البحري الذي ضربته على جميع السواحل العثمانية ، وسمحت بنقل الاقوات من الهند وغيرها إلى تلك البلاد المقدسة ، ثم لما علمت بإرسال أنور باشا الكثير من الجنود التركية إلى الحجاز منعت إرسال الاقوات اليه لان الجنود يستفيدون منها ، وقد كان من المستغرب تموينها لبعض بلاد أعدائها ولكن تموينها لجيوشها غير معقول ، وإنما المعقول ضده ، ولولا احترامها للبلاد المقدسة لضربت سواحلها بمدافع أسطولها ولجعلتها من ميادين الحرب أيضاً ، ولكن إزالة الشريف أمير مكة للسبب الذي أوجب الحصر ، ومنع القوت والحج ، مناواة للدولة التركية أو الاتحادية لانه تصدى لقتال جنودها ، ورفع سيادتها عن البلاد التي هو أميرها ، فالشريف قد اضطر إلى الاستقلال بالامر في الحجاز ونبذ سيادة هذه الحكومة الاتحادية ظهرياً ونحن نخالف من يرى من المصريين ان هذا الاستقلال صوري وانه كان بالتواطؤ بينه وبين الدولة ، ومن يرى أنه لايزال خاضعاً لهذه الحكومة وأنها هي راضية عن فعله وعاذرة له فيه ، لأننا نعلم أن إزالة منع القوت ومنع الحج ليس هو الباعث على هذا الاستقلال ولكنه من لوازمه ، وهناك بواعث وأسباب أخرى له سنلم بها في حديثنا

ذ ـ اذا كان الامر كذلك فلماذا لم تجرد الدولة جيشاً لقتاله ؟ ولماذا حاصر هو الجيش التركي حصاراً ولم يناجزه القتال ؟

د — أما الشريف فيمنعه دينه من الاقدام على سفك الدم في أرض الحرمين الشريفين من غير ضرورة ملجئة لا مندوحة عنها، وأما الدولة فالمانع لها من إرسال جيش جديد لقتاله إما العجز وإما العقل، أما العجز فهو الآن غير بعيد، لأن جنود الدولة متفرقون في عدة ميادين من أوربة وعدة ميادين في الاناضول وإيران والعراق وسورية وسيناء، فهي لا تستغني عن جيش كبير يصلح ما عطل من سكة حديد الحجاز ويبقى قسم منه في مواضع متفرقة من الطريق لحمايتها، ويسير قسم منه لانقاذ حامية المدينة ثم الزحف منها إلى مكة مع حفظ طرق مواصلاته من مركز تموينه وإمداده في الشام إلى مكة. وأما العقل فيقتضي عدم التصدي لقتال الشريف الآن حتى في حال القدرة وانتفاء العجز، لأن قتاله يضعف الدولة في الميادين الاخرى، وربما يستتبع خروج عرب الجزيرة كلهم أو جلهم عليها، فيقطعوا الطرق على الزاحف، والسكوت عنه لا يضر الدولة الآن، فإن انتهت الحرب بظفرها مع أحلافها أمكنها أن تتصرف في الحجاز بما تشاء، وإن انكسرت مع أحلافها فلا اختيار لها في استقلال الحجاز، وقد يفرق المنتصرون جهاته شمالاً وجنوباً ويقضي الشريف ما كان من استقلالها، بل المعقول أن يتمنى كل مسلم من ترك الدولة تركيا أن تسلم بلاد الحجاز وسائر بلاد العرب من الوقوع تحت تصرف الحلفاء المنتصرين في هذه الحالة، ولولا أن الدولة في أيدي الاتحاديين لرجحنا أن العقل يمنعها من قتال الشريف إن لم يمنعها العجز، وأما الاتحاديون فقد جعلوا من أصول سياستهم إضعاف العرب حتى لا يكون لهم حقوق مع الدولة إن بقيت، ولا استعداد للاستقلال بأنفسهم إن سقطت، ولسان حالهم مع العرب في هذه الحالة يقول:

اقتلوني ومالكا   واقتلوا مالكا معي

وقد سمع من أفواههم كثير من طلاب الاصلاح من العرب ما يدل على مثل هذا من مقاصدهم عند ما كانوا يتكلمون معهم في حقوق العرب في الدولة، وفي أحوال أخرى، ألا ترى أنهم اتخذوا حالة الحرب ذريعة لتنفيذ مقاصدهم في العرب، فكان المعقول أن يثبتوا لعرب الولايات صدق وعودهم بالاصلاح ويفوا لهم بعهودهم التي عقدوها مع السيد الزهراوي عقب عقد المؤتمر العربي، ويزيدوهم على ذلك من

الاصلاحات الداخلية ما يملكون به قلوبهم كما ملكوا أبدانهم وأموالهم فاستعملوها في هذه الحرب كما شاؤا ، وفي أمثالنا العربية « عند الشدائد تذهب الاحقاد » ولكن امثالنا لا تصدق على طباعهم وأخلاقهم ، بل تضادها وتناقضها ، فالشدائد كانت عندهم مظهرة للأحقاد في أقبح مظاهرها وأشنع مناظرها ، فبعد أن جندوا جميع شبان سورية والعراق وفرقوهم في الميادين البعيدة عن بلادهم كالقوقاز والبلقان والاناضول - وبعد أن صادروا الاموال والغلال في تلك البلاد ، طفقوا يقتلون أولي العلم والعرفان وكبار الضباط وسائر أرباب العقول والافكار في كل من القطرين (السوري والعراقي) وينفون الكبراء والاغنياء ، ويستولون على ديارهم وأموالهم.

وبعد أن رأوا ما ريهم هذا قد تحقق بغير معارضة ولا مقاومة ولوا وجوههم شطر الحجاز ، لا لاجل الصلاة إلى المسجد الحرام ، ولا لاجل الطواف بين الركن والمقام ، فانهم لم يكونوا من الطائفين ولا [illegible] ولكن ليتمموا في الحجاز ما فعلوا في العراق والشام ، حتى إذا [illegible] جزيرة العرب

ذ - إني أعلم أن [illegible] في دين هؤلاء الاتحاديين وفي سياستهم ، وقد قرأت كل ما كتبه في السنين الماضية عنهم ، ولكنني رأيتك قد سكت عن ذلك الطعن الشديد فيهم بعد حرب البلقان ، ثم تنسمت عطفه عليهم من بعض ما كتبه قبيل دخولهم هذه الحرب وفي أثنائها ، وكنت أظن أنه كجمهور المصريين لم يصدق أخبار المقطم والاهرام ، عن فظائع جمال باشا في بلاد الشام ، حتى قرأت المقالة التي نشرتموها في الشهر الماضي فعلمت أنكم مصدقون لتلك الاخبار ، وتتوقعون أن يكون لها تأثير سيء في الحجاز وسائر جزيرة العرب

د - نعم إنني تركت تلك الحملات على الاتحاديين بعد حرب البلقان وفي أثناء هذه الحرب لان الحملة عليهم تعد حملة على الدولة ولا ينبغي ذلك في أثناء الحرب وإن كان بنية صالحة وبقصد الاصلاح كما بينت ذلك في المقالة التي نصحت بها بمثل هذا الملتقى سورية قبيل دخول الدولة في الحرب ، ثم اني صدقت ما أتوه من التنكيل بالعرب في الشام ، لانه ثبت عندي بالتواتر فكذبت تلك المقالة وأطلعت عليها

بعض إخوانه قائل أن تحيتنا البرقيات يلها استقلال الشريف وإن نشرت بعد ذلك ، ثم علمت بعد نشرها أن أنور باشا مازار سورية والحجاز في أوائل هذا العام إلا ليتولى بنفسه ارسال الجند والسلاح إلى الحجاز للقضاء على سلطة الشرفاء فيه وان قيل انه جاء بصنيعه جمهته الشريف على حيدر من الآستانة إلى الشام أو المدينة ليجعله خلفا للشريف حسين أو أميراً للحجاز في المدينة فالواضح هذا الظهر فالغرض الصحيح منه أن يضربوا الحديد بالحديد لما في ذلك من المقاصد الكثيرة التي يطلبونها ، فاذا أمكن للشريف حيدر وأخيه الشريف جعفر أن يؤلبا بعض عرب الحجاز على الشريف حسين بمال الدولة التي يؤيدان به نفوذهما سهل على قائد الجنود التركية بمدامة في عرب الحجاز أن يستتب النفوذ في الحجاز من غير خسارة تذكر ولا صيت قبيح بلشرة ثم ابهم بعد الفتك بالشريف حسين وأولاده يفتكون بالشريفين حيدر وجعفر ، كما فتكوا بصديقي الشريف حيدر (عبد الكريم قاسم الخليل والسيد الزهراوي) إذ لولا [illegible] من يقنع الزهراوي بالمجيء من باريس إلى الآستانة بعد أن [illegible] في ذهابه إليها خطراً على حياته ، ولم يكن الشريف ضامنا له الأمن على حياته فقط بل كان ضامنا له الاصلاح الذي وعد به الاتحاديون وأكثر مما وعدوا ، وقد رغب إلى هو وعبد الكريم أن أكتب إلى الشريف حيدر كتاب شكر لحسن سعيه في هذه السبيل

إنني على ما أعلم من سوء نية الاتحاديين وخبث ما أضمروه للعرب قد كنت أحسنت الظن بأنور باشا عندما جاءنا المقطم بخبر زيارته لسورية والمدينة المنورة، ولعل الأستاذ يتذكر أنني قلت له حينئذ : إن أنور باشا ما جاء سورية وفلسطين والمدينة إلا ليصلح ما أفسده جمال باشا حتى لا يصل سوء تأثيره إلى جزيرة العرب ، وليستميل عرب الحجاز وغيرهم على هذه الحرب ، فان أنور باشا هو الذي تولى في أول هذه الأزمة استمالة عرب الجزيرة بما كتبه إلى أمرائهم، وزعمائهم من المكتوبات العربية المزينة بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، وقد اطلعت على صور بعض هذه المكتوبات العامة والخاصة ، ومنها الكتاب الذي حمله رسول خاص إلى عدوه الذي لم يعترف له بصفة رسمية قط ـ أعني السيد الادريسي ـ وهو يعظمه فيه ويمجده

ويظهر الثقة به ، ثم علمت في هذه الأيام أنه كان طلب من الشريف أمير مكة المكرمة نجدة عربية لمساعدة حملة سيناء على مصر ، وان الشريف أرسل الحملة إلى المدينة المنورة وهي التي تحاصرها الآن ، فان الشريف لما رأى الجنود التركية ترسل إلى الحجاز بعشرات الألوف وتوزع في مدنها وثغورها وهو يعلم كما نعلم وتعلم الدولة أن الحجازيين عليه أدنى خوف من الدول الأوربية ، فلم يبق لارسال الجنود اليه سبب يعقل - والدولة في أشد الحاجة الى الجنود - إلا التنكيل بعربه والفتك بشرفائه انفاماً لبرنامج جمعية الاتحاد والترقي الذي يعرفه الشريف كما نعرفه ، وقد كانوا حاولوا البدء بالشريف قبل هذه الحرب إذ أرسلوا الضابط وهيب بك أحد غلاتهم المتعصبين خفية إلى الحجاز ، وبعد وصوله إلى مكة أظهر التقليد الرسمي الذي معه بولاية الحجاز وقيادة حاميتها ، وكان من أمره خذلان عسكره في التحرش بقتال العرب ومحاولة الفتك بالشريف كما هو مشهور ، فلهذا تحولت الحملة الحجازية التي ألقت اجابة لطلب [illegible] إلى حملة تحاصر جنوده في المدينة المنورة ويقاتلهم [illegible]

ذ - إذا كان الشريف عالماً من قبل بما تضمره جمعية الاتحاد والترقي للعرب عامة ، وله ولأهل بيته خاصة ، فماذا كان ينصر الاتحاديين حتى انه حارب السيد الادريسي لأجلهم وكاد يحارب أمير نجد ابن السعود كذلك

د - لا أدرى متى عرف ذلك معرفة لا تحتمل التأويل ، وقد كان أولا يتأول للاتحاديين ويرجو صلاحهم حتى كان بعض رجال النهضة العربية يتهمونه بمشايعتهم وبكراهة السيد الادريسي أن يكون ذا سلطة في عسير ، وينقل عنه وعن أهل بيته انهم يقولون انهم لا يؤيدون الاتحاديين فيما تقوم به جمعيتهم من الأعمال وإنما يؤيدون الدولة نفسها فيما تقرره ويرون أن الاعتصام بها وإن جارت على العرب وغيرهم أرجح من مقاومتها ولو سراً لئلا تفضي المقاومة إلى التفرق الذي يضيع به العرب مع الترك ، وإن الطريقة المثلى لتلافي ما يرى ضاراً من أعمالها إنما هي طريقة السعي لديها والاجتهاد في اقناعها بضرر الضار ونفع النافع ، وهذا الرأي والمسلك لم يكن مرضياً عند الأحزاب السياسية العربية من كل وجه ، بل كانوا

يرون انه يجب أن يكون الشريف أمير مكة مخلصاً للدولة ومؤيداً لها فيما صار في حيز الأمور التنفيذية فقط إلا قتال العرب ، وأما مالم يصل إلى حيز التنفيذ فيتهم أن يكون حربه فيه معارضاً لحزب الاتحاديين بعد ظهور عصبيتهم الجنسية وتنكيلهم بالعرب ، ولكن نجله مبعوث مكة المكرمة كان مع سائر مبعوثي الحجاز من الاتحاديين ، وكذلك أخوه الشريف ناصر العضو في مجلس الاعيان من حزبهم ولم يغن كل هذا شيئاً ، ولا صد الاتحاديين عن محاولة تنفيذ ما كانوا يضمرون للشريف الأكبر وأهل بيته ، وإنما يكرهون هذا الشريف وأولاده لأن لهم من النفوذ في عرب الحجاز ماليس لغيرهم من الشرفاء ، قلت آنفاً اننا لاندري حقيقة عرف الشريف الأكبر حقيقة حالهم ويئس من صلاحهم ، وقد ظهر لنا أنه يئس من بقاء الدولة العثمانية أيضاً ولعله لولا هذا اليأس مانهض بهذا الأمر

ذ ـ ان من الناس من يرى ان الدولة ماسلمت من خطر اليأس وعظم الرجاء فيها إلا بدخولها في هذه الحرب [illegible] أحد الحلفين العظيمين الذين تتألف منهما الدول الأوربية [illegible] الدول الصغرى ، وقد نقل إلينا المقطم ان من شروط محالفتها لألمانية أن لا تعقد هذه صلحاً إلا بشرط حفظ استقلالها ، والصلح لابد فيه من رضاء الفريقين وإن كان أحدهما مغلوباً ، فاستقلال الدولة العلية مضمون على كل حال ، فكيف يعقل أن ييأس منه الشريف وهو من أركان الدولة الذين هم أعلم منا بحالها وبشروط محالفتها التي منها ما ذكر

د — إذا كان في الناس من يرى ان استقلال الدولة مضمون وان غلبت مع أحلافها في هذه الحرب ، وكان أعداؤها هم المقررين لشرط الصلح ، فان في الناس من يرى ان هذا الاستقلال قد زال بالفعل ، وان انتصر الالمان مع أحلافهم وتحكموا في شروط الصلح ، أما بقاء استقلال الدولة بعد انكسارها وانكسار أحلافها فهو معقول ، وأما الرأي الذي يقابله في الغرابة وهو زوال استقلالها في حال انتصارها وانتصارهم فلأصحابه وجه جدير بالتأمل ، وهو أن الدولة قد غرقت في بحر لجي من الديون وخسرت أكثر الشبان العاملين في المملكة ، وأفقرت الامة كلها بمصادرة أموالها واستنزافها بأسماء متعددة ، وكان عجز ميزانيتها قبل حرب البلقان وهذه

الحرب الثانية أفقرتها وأفقرتا أمتها بسبب اقتراض الملايين في كل عام ، وقد زادت ديونها الآن زيادة كبيرة حتى صار ربا الديون يستغرق معظم الميزانية التي لا بد أن تنقص عما كانت نقصاً فاحشاً ، ومن البديهي أنها لا تجد بعد الحرب من يقرضها كما كانت تجد قبلها ، وليس أمامها من أكرم القتية إلا الأمة الألمانية وقد ذهبت قروض الحرب لدولتها ودول أحلافها بمعظم ثروتها ، فلن تقرض دولة وصلت ماليتها إلى حد الإفلاس مالاً يعتد به إلا إذا جعلت مالية الدولة وجميع موارد الثروة في المملكة تحت تصرف دولتها يديرها رجال الألمان الماليون والفنيون — فإذا تدبرنا هذا وعلمنا أيضاً أن الدولة قد جعلت حربيتها وبحريتها في أيدي الألمان وجعلت لهم السلطان على جميع مدارس المملكة الأميرية وغيرها ، وتذكرنا أن الألمان يملكون عشرين كيلو متراً على جانبي سكة حديد بغداد في خط يمتد من قونية والبوسفور إلى بغداد ، فأي استقلال يكون للدولة بعد قبض الألمان على إدارة المالية والحربية ، والمعادن والمناجم مع امتلاك [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ؟

كان لبعض الألمان [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] أو ملعب لكرة يلعب فيها أهل البيت والعيال ، فلما انتصر الجيش الألماني بلاد البلجيك المضمون استقلالها منهم ومن سائر الدول الكبرى ظهر أن ملعب الكرة كان مبنياً بطريقة فنية هندسية ليكون مركزاً للمدافع الضخمة المكتوم خبرها عن غير الألمانيين ، وأن المسافة بين الملعب وبين الحصون البلجيكية هي مسافة رمي تلك المدافع التي دمرت تلك الحصون . فإذا كنا قد استفدنا من عبر هذه الحرب أن ملعب الكرة لبيت ألماني في زمن السلم كان خطراً على الدولة التي يملك الألماني في بلادها ذلك الملعب مع أن دولته ضامنة لاستقلالها ، فهل يتصور أن تسلم من الخطر دولة يملك الألمان التصرف في جميع ثروتها المالية والحربية والعلمية والفنية ، ويملكون في قلب مملكتها تلك الألوف من الأميال التي هي محل العمران المنتظر فيها ؟

ولدينا عبرة أكبر من هذه العبرة وأظهر وهي ما نقله إلينا المقتطف في جزء مارس من هذه السنة من مقالة لكونتس ورك (الأميرة الإنكليزية) عنوانها (ملك الإنكليز وإمبراطور الألمان) قالت فيها عن الملك أدوارد ما نصه :

« وزارني مرة قبل وفاته بثلاثة أشهر لتناول الشاي عندي وتكلم عن الادارة الألمانية فقال « لو كانت بلادنا تدار كما تدار ألمانيه لاستفدنا فائدة كبيرة وياحبذا لو حكمنا الألمان المدة الكافية لاصلاح إدارتنا » قال ذلك وصمت قليلا ثم قال وهو يضحك « ولكن المصيبة أنهم إذا أتوا ليحكمونا تعذر علينا الخلاص منهم » وهذا آخر حديث جرى لي معه لأني لم أره بعد ذلك » اه واستدلت الاهرة بهذا الحديث على أن الملك لم يكن يضمر العداء لألمانية . وإثبات هذه القضية هو الذي كتبت لاجله المقالة

فاذا كان هذا الملك السياسي العظيم يقول إن دولته التي هي أعز الدول وأعظمها دهاء وتدبيراً يتعذر عليها الخلاص من الالمان إذا دخلوا عاصمتها لتنظيم الادارة وهي في جزيرة يحميها أقوى أسطول عرفته البحار منذ خلقها الله تعالى ، فهل يتيسر لدولة العثمانية الضعيفة الخلاص منهم بعد ذلك [illegible] تمردهم المنتظر بعد الحرب إن كان لهم الظفر ، [illegible]

هذا وإن مما [illegible] الحرب [illegible] ولم يبق في البلاد القابلة للاستعمار ما يشبع مطامع ألمانيا ويتسع لجالية الشعب الكثير ، ومزروعاتها وصناعاتها إلا البلاد العثمانية ، وقد كانت دول الاحلاف تعارضها في استعمارها الاقتصادي مع إبقاء الدولة العثمانية على استقلالها السياسي الصوري ، فاذا انتصرت في هذه الحرب لم يبق لها معارض من الترك ولا من الاوربيين .

ذ ـ والله إن هذا الكلام معقول في نفسه ، ولكن لا يعقل أن يجهله الاتحاديون فكيف رضوا إذاً بموالاة الألمان ؟ أيعقل أن يكون في يد أناس ملك عظيم فيبذلوا دماءهم وأموالهم لاجل إضاعته ؟

د ـ لو كان رجال البيت السلطاني ، وكبراء عقلاء الدولة وسرواتها من قدماء الوزراء والاعيان هم الذين قرروا بالتشاور بينهم القتال مع ألمانية وتحكيمها في الدولة لكان هذا السؤال أكثر اتجاهاً ، والجواب عنه متعسر أو لا أقول متعذراً . أما وزعماء الاتحاديين هم القائمون بذلك وهم أوشاب لا تعرف لبعضهم الاسرائيلي الاصل منهم أنساب وصلوا إلى ما وصلوا اليه من الاستبداد بهذا الملك بمساعدة اليهود

الجرمانيين فالجواب سهل والناس فيهم رأيان يؤخذ من كل منهما جواب

سبب تسليم الاتحاديين الدولة للألمان

(الرأى الأول) رأى سمع كثيراً من خصومهم، وهو أنهم جماعة من طلاب المال والثروة علمهم أعلم البشر بطرق تحصيلها — وهم اليهود — كيف يكونون من أغنى أهل العصر بسلب ثروة هذه الدولة ثم بيعها لدولة الألمان الغنية، ويستشهد أصحاب هذا الرأى على صحته بأنهم لو كانوا يريدون بقاء الدولة وتعزيزها لبدؤوا عملهم فيها بوضع ماليتها على أساس ثابت بكثرة الدخل وقلة الخرج، ولو أرادوا ذلك لكانوا أقدر الناس عليه بمساعدة أساتذتهم وإخوانهم من اليهود الاصلاء الدونمه (الذين منهم جاويد بك الذي جعلوه ناظر المالية وفوضوا اليه عقد القروض) ولكنهم اغتنموا فرصة ما سموه (حركة الارتجاع) فنهبوا السلطان عبد الحميد ونهبوا من أمواله وجواهره وتحفه ما تقدر قيمته بالملايين الكثيرة، وقد حدثني الثقات من أهل الآستانة انهم كانوا [illegible] من تحفه المرصعة بالجواهر حتى ان [illegible] الطلب والمسدسات المرصعة وأمثالها في حديثه الطويل (جزء [illegible] البوارق) ثم اغتنموا فرصة وصول جيش البلغار إلى شطالجه فسلبوا ما هو أعظم من ذلك من جواهر ملوك آل عثمان وتحفهم المحفوظة في قصر قسطنطين إذ زعموا انهم انما يريدون اخراجها من مأمنها وارسالها إلى الاناضول لئلا يدخل البلغار الآستانة فيغنموها، وقد عقدوا القروض بعشرات الملايين ولهم من كل قرض عمولة مشهور أمرها وكثر الكلام في الآستانة فيها، ثم إن ما يصل إلى الخزينة منها يتصرفون فيه بضروب من التصرف منها النفقات السرية التي لا تذكر في الميزانية وأعظمها ما يخصص للحربية والداخلية، وهم يشترون السلاح والذخائر والثياب والاحذية للعسكر بثمن ويدونونه في دفاتر الحربية بثمن آخر فيربحون من ذلك مبالغ كبيرة، والدليل على هذا أنهم أنفقوا في نظارة الحربية خمسين مليوناً من الجنيهات قبل حرب البلقان ثم كان أهم أسباب انكسار جيش الدولة في البلقان قلة الذخائر وقلة الطعام وسائر ما يتوقف عليه القتال. وقد أذكرتنا مصادرتهم للأمة في هذه الأيام بما كانوا

يصادرون به الأغنياء منذ صار أمر الدولة في أيديهم — إذ كانوا يهددون كل غني بالانتقام منه لأنه من الحزب العهدي الارتجاعي إلا أن يفتدي نفسه بما يناسب مقدار ثروته ، فأخذوا من علي رضا باشا الذي كان ناظر الحربية في العهد الحميدي مئتي ألف ليرة ومن زهدي باشا ٣٠ أو ٤٠ ألف ليرة وعلى ذلك فقس . ثم إنهم فرضوا على كل من دخل جمعيتهم دفع اثنين في المئة من جميع دخله وذلك فوق ما فرضه الله من الزكاة على الأغنياء فيما فضل عن نفقاتهم وبلغ النصاب وحال عليه الحول ، ثم ان الألوف من الذين انتسبوا إلى الجمعية كانوا يكتمون عنهم ما يمكن كتمانه من دخلهم ومما لا يمكن كتمان شيء منه رواتب موظفي الحكومة وقد دخل كلهم أو جلهم في الجمعية ، وضاعوا البوسنه والهرسك وطرابلس الغرب بعد فلايين

فالذين يعرفون سيرتهم هذه بالتفصيل يعتقدون أن زعماء الجمعية لا هم لهم من حياتهم إلا جمع الثروة وهم لا يضمنون بقاء الدولة لهم والذين هم من بعدهم فلذلك يأمونها الاتحاديين ... الشعب ... جمع قوى الدولة في قتال أعدائهم ، وستكون كذلك في أيدي الاتحاديين ... ويستعملون نفوذ الاتحاديين ونفوذهم على السلطان ودولته في استيلاء المملكة العثمانية ويؤيدون الاتحاديين على خصومهم السياسيين من الترك والعرب إلى أن تنشب براثنهم في كل شيء ويستغنون عن الاستفادة من اسم الدولة ونفوذها الديني ويأمنون معارضة الدول فيصرحون بإزالة هذا الاستقلال الصوري الخادع

(الرأي الثاني) رأي أصدقاء الاتحاديين — وهو مبني على رواية لا يكاد يعرفها إلا قليل منهم ، ... ذكرها في بيان هذا الرأي — وهو أنهم لم يبيعوا المملكة بيعاً ولم يفرطوا بشيء من حقوقها ، وكل ما أخذوه من الأموال الجمة قصدوا به أن تكون الجمعية غنية لتتمكن بقوة الثروة من الفوز على خصومها من رجال العهد القديم المحافظين على التقاليد العتيقة المنافية لما يريدون من التجديد المدني للدولة والأمة ، وخصومها من الأحزاب السياسية المخالفة لها في مذهبها السياسي والاجتماعي كحزب الائتلاف والمنار وغير ذلك ، وأما ما أعطي لبعض زعماء الجمعية كالدكتور ناظم وأحمد رضا فهو تعويض عما خسروا في سبيل الجمعية ، وما عدا ذلك كسمسرة القروض والامتيازات

فرو قانوني . ولما رأوا أن الدولة ضعيفة فقيرة لا يرجى ان تنهض بنفسها ، والأمة التركية جاهلة متعصبة للقديم ولا سيما إذا كان من أمر الدين فلا يرجى ان يكون نهوض الدولة من قبلها ، ولا يمكن ترقيتها هي أيضاً من قبل الدولة والدولة كلها على هذه الحالة - لما رأوا ان الدولة والأمة كما ذكر جزموا بأن العلاج الوحيد للدولة التركية والأمة التركية هو أن تتولى دولة أوربية قوية تنظيم الدولة وترقية الأمة وجعلها كالدول الأوربية والأمم الأوربية من كل وجه ، ولم يجدوا دولة من الدول العظمى ترضى بأن تقوم بهذه الخدمة للترك إلا ألمانية - وهي ارقاهن علماً وقوة عسكرية - فما زالوا يخطبون ودها حتى عقدوا معها اتفاقاً سرياً قبل هذه الحرب ينبني على تكوين دولة تركية جديدة على طراز الحكومات الجرمانية تكون تابعة للاتحاد الجرماني في السياسة الخارجية والحروب وغيرها مما لم نعلم تفصيله ، وإنما نعلم منه بالاجمال ان الترك يكونون من الألمان بمنزلة أبناء عمهم المجر من النمسة ، ولذلك تكثر جرائدهم من التذكير بأن الترك والمجر ... أولئك وأخوهم وهم من أصل واحد !

ومن المعلوم بالبداهة ان مثل هذا الاتفاق لا يمكن تنفيذه بصفة رسمية إلا إذا صدق عليه مجلس الأمة من المبعوثين والأعيان ، وان الاتحاديين ما كانوا يتجرءون على عرضه على المجلس خوفاً من انتقاض أكثر أفراد حزبهم عليهم وانضمامهم إلى الأحزاب المعارضة وبذلك يقضى عليهم قضاء لا مرد له ، فكانوا يمهدون السبيل إلى جعل مثل هذا رسمياً بأعمال كثيرة لا تنم عادة إلا في سنين كثيرة ، لأن السواد الأعظم من الأمة يراه خطراً بل قضاء على استقلال الدولة وعلى دين الأمة ، وقد كان المعارضون في المجلس أقوياء ومعظم الامة على مذهبهم ولذلك أسقطوا الاتحاديين وانتزعوا منهم السلطة ، ولكن حزب الحرية والائتلاف الذي انتزعها لم يحول أمرها ولا تيسر له أن يكفل وزارتي الشيخين مختار باشا وكامل باشا ، فلذلك تيسر للاتحاديين بقوة ثروتهم وتكافلهم ومساعدة اليهود وألمانيه لهم أن يعودوا إلى انتزاع السلطة من وزارة كامل ؛ ومن الغريب ان انكلترة وروسيه وفرنسه المعارضات لسياسة ألمانيه في الدولة لم ينصرن الاحزاب المعارضه للاتحاديين ولا وزارتي مختار

باشا وكامل باشا فكان هذا ضعفا متين من حيث هو رجحان للسياسة الألمانية في الدولة ، وقد كان الميالون الى تفضيل مودة انكلترة ومن عساه يكون معها من الدول على مودة المانية وأحلافها أكثر عددا وأرسخ في الدولة قدما ، ولكنهم خذلوا بخذل الدول التي يميلون اليها للدولة في حرب البلقان .

والكلام في إيضاح هذا الرأي بتفصيل المسائل التي تتعلق به يطول فنكتفي منه بما لا يخرج به من موضوعنا ، وملخصه أن الاتحاديين متفقون مع الالمان من قبل هذه الحرب بسنين على وضع زمام الدولة بأيديهم ليرقوها بعلومهم وفنونهم العسكرية وغيرها فكانت هذه الحرب وسيلة لتنفيذ ذلك الاتفاق السري الذي كان يظن أنه لا يمكن تنفيذه الا بعد تمهيد السنين الطوال ، كما قلنا آنفا . واني قد سمعت خبر هذا الاتفاق السري في الآستانة إذ كنت فيها سنة ١٣٢٨ ممن يظن اطلاعهم على مثل ذلك وهم قليل ، والعالمون منهم الاتحاديون كانوا يظنون أن تنفيذه مستحيل ولهذا كنت جازما بعدم وقوع الحرب بين الدولة وتحصيل فيها أملا اذ كان سفير الانكليز في الآستانة رجل حكمة في نحو يتطلع الى بين زعماء الاتحاديين خلافا في ذلك وان يحضهم على البعد الى أخلاقهم — كما عاد ذلك من الكتاب الأبيض بعده فكان خداعهم الاحلاف في هذه الحال وخداعهم لفرنسة قبله إذ أقرضتهم عشرات الملايين مما يفخرون به وما هم في هذا الفخر بمحقين

مكان زعماء الاتحاديين من الدين

ذ — يظهر أن زعماء الاتحاديين قد أوتوا حظا عظيما من الذكاء فكيف خفي عنهم ما قررت من الخطر على الدولة في تسليم أزمة أمورها الالمان ؟ وكيف خفي عنهم الفرق بين الترك والجر حتى ظنوا أنهم يمكن أن يكونوا من الالمان بمنزلة المجر من النمسة ؟ ألم يعلموا أن المجر يشاركون النمسويين بأعظم المقومات الاجتماعية وهو الدين فلا يمكن أن يكون الترك المتعصبون في الاسلام الذين تمثل دولتهم الخلافة الاسلامية متحدين بالالمان المتعصبين في دينهم المجدين في تنصير المسلمين في مستعمراتهم الافريقية ومنع انتشار الاسلام فيها كما علم ذلك من الاوراق التي اكتشفها الانكليز هذا العام في نواحي الحكام الالمان بذلك . وقد تذكرت بها كلاما لقيصر الالمان في هذا

الملحق فنشرته الجرائد منذ سنين أظن أنه في الحث على اتفاق مبشري الألمان البروتستنت مع الكاثوليك على تنصير المسلمين (١

د - اعلم أيها الاستاذ أن زعماء الاتحاديين الذين كلامنا فيهم ملاحدة لايدينون دين الاسلام ولا غيره ، وهذا ثابت من أقوالهم وأفعالهم يعرفه جماهير العلماء والكبراء في الآستانة وغيرها وجميع السياسيين في أوربة ، وهم يتمنون خروج الشعب التركي من الاسلام ، ولو بالتصريح الممكن الى الوثنية بشرط أن يبقى تركيا ، لانهم يظنون أن الاسلام هو العلة المانعة من مساواته للشعب المجري وغيره من الشعوب الاوربية . ويشاركهم في هذا الرأي غيرهم من ملاحدة الترك .

ولما كنت في الآستانة نشرت جريدة (إقدام) الشهيرة - وكانت معارضة للاتحاديين - مقالة في المقابلة بين الترك والمجر ، وتساءلت عن سبب ما بينهما من الفرق في العلم والمدنية مع الاتفاق في النسب ، ورغبت الترك في التشبه بالمجر وسلوك طريقتهم و [illegible] وقد [illegible] السيد الزهراوي رحمه الله تعالى في كتابة رد عليها [illegible] أعظم الفروق بينهما الدين واللغة فهل تنصح للترك بأن يتركوهما معا ليكونوا كالمجر في كل شيء أو يتركوا الدين الاسلامي أو

---

١) المنار : اننا نشرنا في ص ٧٢٠ م ٧ انه كتب الينا من بعض المستعمرات الألمانيه أن ألمانيه تكره الناس هنالك على التنصر وتغري العداوة بين العرب المهاجرين الى تلك المستعمرة وبين الاهالي لان العرب أشد تمسكا بالاسلام وجذبا اليه ، وجعلنا هذا العمل مرشدا الى تفضيل انكلترة على ألمانية . ثم نشرنا في ص ٧٩٩ منه أنه كتب الينا من دار السلام ان حكومتها الالمانية هدمت مسجدين للمسلمين وتضطهد العرب وتمنعهم من ركوب السيارات الحسنة . ومن الغريب ان وكالة ألمانيه السياسيه بمصر بلغتنا بعد نشر ماذكر ببضعة أشهر أنها كتبت الى دار السلام تسأل حكومتها عن حقيقة ماعزي اليها وأنها أجابت بأن منع العرب من ركوب المركبات لا أصل له ، وأن هدم المسجد كان بطلب المسلمين لبعده عن بيوتهم ، وأن الحكومه بدلتهم بمكانا آخر قريبا وأعطتهم مالا وافرا . ولكنها لم تكذب خبر التنصير بالاكراه الذي نشر في جزء آخر .

اللغة التركية لأجل ذلك ؟ فقال ان الحكومة لا ترضى بنشر مثل هذا ، وكان الاتحاديون يتقربون الى الاوربيين بالالحاد ويكاشفونهم باعتقادهم أن البقاء على الاسلام مانع من ترقي الترك ، واجتهدوا في استمالة نصارى السوريين اليهم بذلك وبإيهامهم أن العرب المسلمين لن يتفقوا معهم لتعصبهم الديني

أما مذهب الاتحاديين السياسي فهو انشاء دولة تركية محضة متحدة بالتحالف الجرماني ، وان الترك لا يمكن أن يندمجوا في الجرمان بسبب هذا الاتحاد بحيث يفنون فيهم لأن المحافظة على اللغة التركية تمنع من فناء الشعب التركي المؤلف من عشرات الملايين في الشعب الألماني أو غيره

ذ ـ أين عشرات الملايين من الترك والمشهور انهم لا يكادون يبلغون في الدولة ستة ملايين ؟

د ـ انهم يعدون مسلمي القوقاس وتركستان منهم ويظنون انهم سيأخذون هذه البلاد بقوة ألمانية وأنهم لا بد أن يكرهوا جميع الشعوب العثمانية على ترك لغاتهم إلى اللغة التركية حتى العرب ، وبذلك يكون لهم امبراطورية كبيرة منظمة على النمط الألماني ، ومن أمانيهم في هذا الخيال أن يملكوا مع الألمان الشرق كله أو العالم كله ، وأما الخلافة الاسلامية فيستخدمون نفوذها الديني في سياستهم وحروبهم إلى أن يتم لهم افناء الأمة العربية وتكثير النابتة التركية التي يربونها على الالحاد وتحريف الاسلام من أصله بجعل القرآن تركيا وتغييره بمثل ما رأيناه في كتاب (قوم جديد) وغيره من كتبهم ، ويستغنوا عن مخادعة المسلمين والاستفادة منهم باسم الخلافة والاسلام ، فعند ذلك يلفظونها نبذ النواة ، ويجعلون يوم إلغائها عيداً من الأعياد ، فحاجتهم اليها مؤقتة كحاجة أحد ظرفاء السوريين إلى البرنيطة

ذ ـ حدثنا فكهنا بخبر برنيطة هذا السوري الظريف لعله يدفع عني الرعب الذي كاد يساورني من تصور هذا الخيال التركي الاتحادي الغريب

د ـ هو الدكتور . . قال انه يلبس البرنيطة لأنها تزيد في ربحه وفي احترامه كما ثبت له ذلك بالتجربة ، وإنه يتمنى أن يستغني عنها ، وقد وعد أصدقاءه بأن يدعوهم عندما يثبت عنده ذلك الاستغناء إلى احتفال عظيم حتى إذا ما تم عقده

اجتماعهم يوقد ناراً يحرق بها البرنيطة أمامهم ويرثيها بأحسن مما رثي به الفاروق حافظ ، ويسمى ذلك الاحتفال احتفال احراق البرنيطة

ذ - أود أن تخبرني ببعض ما لديك من الدلائل التي لا تحتمل التأويل على كفر زعماء الاتحاد ، فإن بعض ما يدل على ذلك قد يحتمل التأويل ، وهذه مسألة لا يجوز الأخذ فيها إلا باليقين

د - إن ما عندي في ذلك كثير جداً إذا أردت بسطه ودفع ما يمكن أن يورد عليه من الشبهات فلا بد لي ذلك إلا بتأليف سفر كبير ، وإذا أردت أن أحصي في هذا الباب جميع ما أعلم من أقوالهم وأفعالهم المنافية للدين ، وما نشروه في كتبهم الجديدة وصحفهم من العبارات المنفرة من الاسلام أو الدالة على مفهوم السياسي الذي ذكرته آنفاً — فلا بد لي من تأليف عدة أسفار ، ولا بد أن تكون قد قرأت ما ترجمناه من كتاب (قوم جديد) في ص ٥٣٩ - ٥٤٤ م ١٧ - سنة ١٣٣٢ من المنار [1] ورأيت كيف حرف فيه القرآن وجعل الصيام والصلاة والحج والزكاة والعمل بكتب الأئمة الأربعة هو [illegible] المسلمين الذين يعبر عنهم بكلمة (قوم عتيق) وصرح بهدم [illegible] الكعب وعلل ذلك بأنها مملوءة بالنفاق والشقاق ، وبين في مقابل ذلك أركان دين (قوم جديد) وهي العقل وكلمة الشهادة والأخلاق الحسنة والجهاد مالا وبدناً والسعي لاعداد لوازم الحرب بالاتحاد تحت راية الخلافة الاسلامية العثمانية . وصرح بكفر جميع المسلمين من رعايا دول النصارى والذين تحت حمايتهم ، وبأن المسلمين الحقيقيين هم الذين حاربوا في البلقان « تحت إمرة أنور ورضا وأسعد وجاويد ورؤف صلى الله تعالى عليهم وبقية رجال جمعية الاتحاد والفرق المقدسة » ثم صرح بأن عدد الذين ينتسبون الى الجمعية في حرب البلقان لا يتجاوز مئة ألف وهم المسلمون الحقيقيون قال « أما الباقون فكانوا من المرتدين المنتمين إلى الائتلاف (أي حزب الحرية والائتلاف) والعطر كنانات ، وهو يفضل أنور وطلعت وجمال وغيرهم

١) نشر المقطم مقالة لبعض العرب العثمانيين في هذه السنة ذكر فيها بعض الجمل من هذا الكتاب فظن بعض الناس ان ذلك قول مخترع ، وقد ذكر هذا الكتاب في الجزء الثاني من منار سنة ١٣٣٢ الذي صدر في يناير سنة ١٩١٤

من زعماء الجمعية على الخلفاء الراشدين وجميع الأئمة والأولياء الصالحين ، بل هو يقدس جميع الترك التابعين لهؤلاء الزعماء بمثل ما تراه فى تلك النبذة المترجمة منه (ص ٥٤ م ١٧) فانه بعد مخاطبته الترك بأن الله قدسهم وبأن تعظيمهم لخلفاء العرب ووضع أسمائهم فى المساجد بعد إذلالا لخلفاء الترك « الذين قدستهم الأحاديث النبوية بزعمه » وبعد إنكاره عليهم تعظيم الأولياء من العرب كالجيلانى والبدوى وغشهم الترك بأنه سيخرج من العرب مهدى ، بعد تفصيل هذا وزعمه إنه تحقير للترك قال

« أما سمعتم الآية (والعاديات ضبحا) فان الله قسم بهذه الآية الجيوش التركية ، فجمل هذه الجيوش هى أشرف وأقدس أضعافا مضاعفة من شرافة وقداسة رؤساء وأشراف الشعوب الأخرى الذين تقدسونهم وتحترمونهم » اه وليس هناك رؤساء شعوب كثيرة يحترمهم الترك بل رؤساء شعب واحد وهو الشعب العربى — الذين ذكر انهم يعلقون أسماءهم فى المساجد وهم : النبي ﷺ والخلفاء الراشدون الأربعة والحسن والحسين رضوان الله عليهم .

وقد جعل الاتحاديون عبيد الله أفندى مؤلف هذا الكتاب مدرسا فى جامع آيا صوفية لينشر هذه الأفكار فى شهر رمضان وجعلوا قوة الدولة الجلاوزة والشرطة (البوليس والضابطة) يحمونه من اعتداء المسلمين عليه ، ولكن من يطعن فى جمعيتهم أو بعض زعمائهم فلا جزاء له إلا القتل اغتيالا أو صبرا أو بمحاكمة قضائية أو عرفية ،

ذ ـ ان مؤلف هذا الكتاب مجنون أو معتوه ، وتحريفه للقرآن أشد تشويها وأظهر بطلانا من تحريف الباطنية ، فكيف يظن هو وزعماء الاتحاديين أن مسلمي الأتراك يتلقونه بالقبول فيؤثر فى نفوسهم ؟

د — حقا ان هذا الرجل يكاد يكون مجنونا ، ويحتمل أن يكون سبب غلوه هذا هو خبث ودهاء ، والذى يظهر لى أن لهم فى مثله غرضين (أحدهما) فتح باب الجرأة لملاحدة الترك على التصريح بالكفر قولا وكتابة ليكون مجال القول عندهم واسعا فى الطعن فى النبى ﷺ وفى الخلفاء الراشدين وأئمة آل البيت النبوى وأئمة الفقه والصوفية ، ولهم كتاب آخرون سلكوا غير هذه الطريقة فى هذا الباب كالدكتور عبدالله بك جودت صاحب مجلة (اجتهاد) التركية وأحمد موسى

جمعية الاتحاد والترقي الأولى فانه يترجم بالتركية مطاعن (كايتاني) المؤرخ الايطالي في النبي ﷺ ونشر كتابه في هذه السيرة التي شوه جمالها وانقص كمالها بجهله وسوء تأويله ، فكان له رواج وتأثير قبيح عند طلبة مدرسة الطب وغيرهم في الآستانة (والغرض الثاني) نشر ذلك بين عوام الترك الذين لا يعرفون من الاسلام إلا اسمه لعلمهم بأنهم يقبلون كل كلام يقرأ عليهم في كتاب ، وتؤيد فيه المسائل بما يسند إلى الله ورسوله من الآيات والاحاديث بما تمكن عرفته ، والكلام في هذه المسألة يطول فأكتفي منه في هذا المجلس الذي طال عليك بروايتين من علماء الآستانة وبعض القضاة الاتحاديين (الرواية الأولى) كان اسماعيل حقي المناسترلي (رحمه الله تعالى) من أشهر علماء الترك في الآستانة وهو الذي ترجم (الرسالة الحميدية) بالتركية ، وكان واعظا في جامع (آياصوفيه) ومدرسا في دار الفنون (المدرسة الجامعة التركية) وهو الذي صلى بالسلطان محمد رشاد إماما في جمعة في (تصوه) منذ بارتحالها ، وكان استاذ الاتحاديون بعد الدستور يجعله عضوا في مجلس الاعيان ويجعله ..... ، فكان جمهور علماء الآستانة يصفونه بالداهية بدعوى أنه مال إلى الاتحاديين وأنهم لا ينكر عليهم فيظن العوام أنه راض منهم ، ولكن هذا الشيخ الكبير العامر في حق المعرفة ووثوق كان لا يعبر عن الاتحاديين في الحديث معي بداره إلا بلقب « الملاحدة » وقد سألني من رأى في فطين افندي: أمسلم هو أم زنديق ملحد؟ فقلت: ما الذي أثار هذه الشبهه في نفسك حتى شككت في إيمان رجل من أهل العلم؟ فقال: يا سيدي يظهر لنا أن الجمعية تثق به ثقة تامه . فهذا العالم الجليل الخبير بهم حق الاختبار كان يعتقد أنهم لا يثقون ثقة تامة بمؤمن مسلم أما فطين افندي هذا فهو من (الصفطه) طلاب العلوم الدينيه وتخصص بالعلوم الرياضيه فصار مديراً للمرصد الفلكي الذي أنشيء في ضواحي الآستانه وهو ذو همه ونشاطه وظني فيه أنه كان يريد استخدام نفوذ الجمعيه لبعض المقاصد التي يراها نافعه فيخدمها لهذا خدما نافعه ويتوهم أنه قد يقوم ببعض اعوجاجها كما يعلم من الواقعة التي أقصها عليك:

لقيت فطين افندي مرة يتكلم مع (الدكتور ناظم) الرجل المسئول للجمعيه وأعظم رجالها نفوذاً فيها ، فلما أقبلت عليهما قال الدكتور هذا فلان يحكم بيننا ، ثم قص علي أنه اختلف مع الدكتور في مسألة مهمة قال: الدكتور يقول إنه يستحيل علينا

الترقي المطلوب إلا إذا نبذنا كل قديم واتبعنا خطوات فرنسه(؟) في تجديد شباب الدولة والملة (أي الأمة) وأنا أقول انا محتاجون إلى اقتباس الفنون عن الاوربيين عامة لا من فرنسه خاصه لأجل ترقية صناعتنا وحربيتنا وماليتنا ، وأما الامور المعنويه كالآداب والفضائل والشرائع فانا نقتبسها من ديننا وما عندنا فيه أكمل مما عند غيرنا وهو خير لنا ، ولكن الدكتور قال إن هذا كله قد صار رثاً باليا لا ينفع فلابد من التجديد في كل شيء ، هذا ملخص حديثها ولا حاجة إلى بيان ما أبدت به رأي فطين افندي بل أقول إني أكبرته من ذلك اليوم ، ولكن العبرة في ثقة الشيخ اسماعيل حقي في متهدئه لأنه رأى أن زعماء الجمعية يثقون به وإن لم يعرف درجة هذه الثقة ، وقد عرفت رأي جمهور علماء الآستانة في اسماعيل حقي هذا ، وكذلك رأيت كثيراً من المدنيين يعتقدون أن زعماء الجمعيه كلهم ملاحدة لا دين لهم ، ومن هؤلاء كثيرون كانوا محافظين على الانتساب إلى الجمعية يرون أن في هذا خيراً لهم أو مصلحة للدولة والأمة، يعنون أوثق أن يكونوا في حزب الحرية والائتلاف .

(الرواية الثانية) لما جئت بيروت عائداً من الهند إلى مصر من طريق العراق وسوريه زارني قاض من قضاة الترك الاهليين ببيروت اسمه (شوكت بك) كان كثير اللهج بالجامعه الاسلاميه وإيهام مسلمي بيروت وغيرهم أن الاتحاديين يرمون بسياستهم إلى هذه الجامعه ، وكان ذلك في عهد وزارة مختار باشا والناس يجهرون بلعن الاتحاديين ولا سبيل إلى استمالتهم اليهم إلا بإيهامهم انهم يخدمون الاسلام ويجتهدون في جمع كلمة أهله ، فكان أول حديث شوكت بك معي ـ بعد تحية السلام ـ السؤال عن مسلمي الهند وإظهار الاهتمام بشأنهم . وانتقل من ذلك إلى مسألة الجامعه الاسلاميه وما يزعمه من ميل الاتحاديين إليها ، فقلت له : ان فاقد الشيء لا يعطيه، فاذا كان الاتحاديون أنفسهم ملاحدة غير مسلمين إلا في الاسم فقط فكيف يقومون بهذه الخدمه في الاسلام . قال : إن الحكم عليهم جميعهم بالالحاد فيه مبالغه ولعل الملحدين منهم لا يزيدون على ثلاثين في المئه . قلت : الظاهر أنك أسوأ ظنا مني فيهم ، فأنا أعني بمن حكمت عليهم بالالحاد زعماءهم لا جميع من انتمى إلى الجمعيه ، فان لي أصدقاء كثيرين ممن دخلوا في هذه الجمعيه لا ريب عندي في إسلامهم ولا في

ضلالهم ، منهم من تركها بعد العلم بحقيقة حالها ومنهم من يرى من المصلحة العامة أو الخاصة بقاءه فيها ، وقد صرح لي بذلك كثير منهم . وذكرت له إني اختبرت أكبر أولئك الزعماء بنفسي في الآستانة ووقفت على ما كان من اختبار أصدقائهم وغير أصدقائهم لهم ، وذكرت له رأي الزعيم الاكبر الدكتور ناظم الذي ذكرته في الرواية الاولى قال نعم إن الزعماء لادين لهم «دين سز» ولكن مسألة الجامعة الاسلامية تفيد الدولة فائدة سياسية عظيمة فهم لذلك يهتمون بأمرها، قلت: إني أعلم انهم يشتغلون بتأسيس جامعة تركية لا اسلامية عامة وقد بثوا دعاتهم لهذه الجامعة في القوقاس وتركستان ... ولو كانوا يريدون الجامعة الاسلامية لاعتنوا بتعليم اللغة العربية ونشرها ولكنهم يجتهدون في إماتتها وكيف يمارى المسلمون بتبرلمة يتفاهمون بها ، إني طفت كثيراً من ممالك الهند فلم أدخل بلداً منها إلا ووجدت فيه كثيرين يتكلمون معي بالعربية ، ولا يكاد يوجد فيها أحد يعرف التركية ، ولا توجد داعية تعززم للطباء وأما اللغة العربية فداعية لها [illegible] في هذه الايام انتشاراً في الهند وجاوه إلخ

([illegible])

ذ — لقد أطلت عليك وأخذت حظاً عظيماً من وقتك ، وقد اقتنعت مما سمعت منك بأن هؤلاء الاتحاديين ملاحدة لايدينون بدين وأنهم مغرورون يسول لهم الغرور أنهم يستطيعون أن يهدموا بناء هذه الدولة وهذه الأمة ثم يبنونها بشكل آخر زينه لهم اليهود ووضع رسمه لهم الالمان ، وأن ذلك يتم لهم في سنين معدودات ، ولذلك لم يسلكوا طريقة التدريج التي مضت بها سنة الله في خلق الارض والسموات ، وأحب أن تلخص لي كلامك بجمل مختصرة

د — : (١) إن الشريف أمير مكة المكرمة يعتقد أن الاتحاديين ملاحدة يكيدون للدين الاسلامي على مالهم فيه من المنافع السياسية والمالية فمثلهم كمثل المعتصم في حصن لعدوه وهو يرى أنه لابد له من تركه ويخشى أن يصير إلى عدوه فهو على انتفاعه ببنائه وبما فيه من الخيرات يضع الالغام تحته لينسفه عند ارادة تركه

(٢) انه يعلم أيضاً انهم أشد الناس عداوة للعرب وان بغضهم لهم أشد من بغضهم للروم والارمن البلغاريين ، أحدهما انهم أعظم أركان الاسلام وأنصاره ،

وثانيهما أنهم أكبر الشعوب العثمانية وأكثرها عددا ، وأنه قد وجد في بلادهم الحضرية كثير من أصحاب المعارف العصرية والافكار النيرة وما زالت بواديهم والبلاد التي هي أقرب إلى البداوة ذات بأس شديد وقوة حربية لايستهان بها ، فلا يتم لهم مايتخيلونه من تأسيس دولة تركية لادين لها لأمة تركية محضة إلا إذا أبادوا هذا الشعب العربي الكبير الناصر للاسلام ، ولذلك عقدوا النية على تتريك بلاده الخصبة المتصلة بالقوة القاهرة وعلى اذلال أهل الجزيرة العربية الاشداء باضعافهم ونزع السلاح منهم وإلقاء العداوة بينهم وجعل بلادهم المقدسة تحت سلطة عسكرية اتحادية لادين لها حتى لايستطيعوا أو يقوموا بعمل ديني ولا دنيوي

(٣) أن الشعب التركي غيور على الاسلام وشديد التعصب له وقد عرف عنه من المبالغة في التعصب مالم يعرف مثله عن العرب ولكن خضوعه للقوة التي تسود عاصمة بلاده أتم من خضوع سائر الشعوب العثمانية ، بل هو شعب لايعمل الا بالقوة العسكرية ولا يعمل به الا القوة العسكرية وقد غلب حزب ملاحدة الاتحاديين حزب العلماء وجميع الاحزاب الاسلامية العثمانية بقوة الجند ، والحال كما علم من كلامنا السابق ، فإن الشريف يرجو من اسقاط قوة الاتحاديين أعداء الاسلام والعرب بقوة الاحزاب التركية ماكان يرجوه من قبل ، فانحصر وجوب مقاومتهم في العرب وحدهم

(٤) أن الشريف يعلم كما يعلم العارفون وكل من له إلمام بأحوال الدولة ان ملاحدة الاتحاديين قد سلبوا سلطان الدولة وخليفتها نفوذه وجميع حقوقه حتى ماهو مدون في قانونهم الأساسي ، فأصبح المسلمون بغير امام شرعي لاحقيقي مستوف للشروط الشرعية، ولا متغلب يطاع لضرورة جمع الكلمة ، وأنما المتصرف في الدولة جمعية الاتحاد والترقي الملحدة ، فالسلطان محمد رشاد لانفوذ له الآن في المملكة ولا في قصره وهو يسميه أهل الآستانة (المهردار) الجمعية ، أي صاحب الختم الذي وظيفته أن يختم لها كل ماتأمر بختمه من الاوراق ، وهم لا يسمحون له بأن يختار رئيس الكتاب وأمين السر له . حدثني سعدي بك أحد سراة الآستانة الكبار عن رجل من أعضاء البيت السلطاني أنه كان بقرب السلطان في حفلة قراءة المولد النبوي الشريف في قصر (طولمه بغجه) فرأى (الباشكاتب) قد جلس متكئا والسلطان منتصب بغاية الأدب على متنه

وكرسيه فلما رآه السلطان قد اتكأ قال متبرماً : إذا كان هذا .. (فسيت اللقب القبيح الذي ذكره به) لايحترمني أفلا يحترم حضرة فخر الكائنات صلى الله عليه وسلم؟

(٥) أن الشريف يعلم أن هؤلاء المتهورين قد عرضوا استقلال الدولة للزوال، وأن الخطر عليها في انتصار الالمان أشد من الخطر عليها في انتصار الحلفاء ، فمن الظاهر أن الحلفاء يرضون باستقلال بلاد العرب ، ويظن أيضا أنهم يرضون بجعل الولايات التركية إمارة أو سلطنة تركية مستقلة ، وغاية انتقامهم من هذه الدولة أن يجعلوها أجزاء بعضها مستقل بنفسه تمام الاستقلال وبعضها مستقل تحت حماية بعض الدول، كالولايات الارمنية، الظاهر أنها تكون تحت حماية روسيه، ويقال أنهم لابد من أخذ شيء منها لأنفسهم وتختلف الآراء في مصير الآستانه . وليس هذا من موضوع حوارنا

(٦) أن ملاحدة الاتحاديين شرعوا في تنفيذ خطتهم بإذلال العرب التي هي مقدمة أو علة لإذلال الاسلام كما ثبت في الحديث الصحيح عند أبي يعلى « إذا ذلت العرب ذل الإسلام » [illegible] العراق و[illegible] [illegible] راتهم الى الحجاز ، فاضطر الشريف الى دفع [illegible] عن العرب [illegible] الحجاز واستقلاله بالسلطه فيه من دونهم لمجموع ماتقدم من الأسباب.

ذ - يظهر مما قررته أنه لايعد مقاومته للاتحاديين خروجاً على السلطان ولا عداء للدولة نفسها لانه يرى انهم جانون على الدولة والسلطان قبل جنايتهم على العرب في الحجاز وغيره

د — نعم هذا هو الظاهر بل المتيقن ، ومن وقف على الحقائق يرى أن الشريف قام بأعظم خدمة للاسلام والمسلمين ، وذلك أنه لما رأى الخطر قد أحاط بالدولة كما هو واضح مما شرحته كان من الضروري أن يخاف وقوع القضاء بها فجأة فيكون حرم الله وحرم رسوله وسواهما من جزيرة العرب عرضة لسقوطها وزوال السلطة الاسلامية عنها وعن غيرهما مدة فترة السقوط أو مدة أطول منها يكون الحرمان وغيرهما فيها من قبيل التراث الذي يحكم فيه الفاتحون بما يشاؤون . فهو باستقلاله هذا قد جعل الحجاز تحت سلطة اسلامية خالصة ، ويوشك أن يكون هذا مقدمة لدولة عربية اسلامية كبيرة ، وما ذكره الأستاذ في أوائل حديثه من تمادي

أمراء جزيرة العرب وكونه يحول دون تأسيس دولة عربية عزيزة غير مسلّم ، فالموادة بين أمراء الجزيرة وزعمائها لم تكن منذ قرون كثيرة خيراً منها الآن ، فلم يبق بين أحد منهم شيء من ذلك العداء إلا ما بين امام اليمن والسيد الادريسي ويرجى أن يقدر الشريف على تلافي ذلك وعقد اتفاق بين الجميع على قاعدة (اللامركزية)

وصفوة القول إن استقلاله هذا لا ضرر فيه على الدولة العثمانية ولا على الأمة التركية ، وإنما هو كبح لجماح هذه الجمعية الباغية على الاسلام والدولة والعرب ، فان سقطت الدولة في هذه الحرب لم يكن استقلال أمير الحجاز أحد أسباب سقوطها وإن سلمت من الحرب ومن هؤلاء الملاحدة وعادت دولة اسلامية قوية لم يكن ما تقدم من استقلال الشريف مانعاً من العودة إلى الوفاق والاعتصام ، هذا ما نص ما عندي في هذه المسألة ، فاذا كان لديك أسئلة أخرى فلنكن في زيارة أخرى .

انتهت المحاورة مع الاستاذ بما ذكرنا من الاقناع وكذلك المحاورات الأخرى في الجملة

خلاصة ما وقفنا عليه من الآراء في مسألة الحرب واستقلال الشريف الأكبر أن المسلمين هنا لا يرتابون في هذا الاستقلال بل إنه يمكن أن يستتبع تأسيس دولة عربية قوية مستقلة تام الاستقلال لا تعود فيها الدولة اجنبية يضعف استقلالها ، ولكن منهم من يشك في امكان ذلك ومنهم من يشك في سهولة حصوله دون امكانه ، ولكل منهم دلائل نظرية لا يتسع هذا الجزء لبسطها ان كان من الممكن نشرها

ثم ان كل فرد ممن تكلمنا معهم أنصف الشريف في استحسان وقوته بهذا الاستقلال عند حدمنع الضرر من أهل الحرمين وغيرهم من العرب مما ثبت عنده من سوء نية الاتحاديين بحيث كان استقلاله غير مضعف للدولة إلا بقدر ما يجنى عليها الاتحاديون إذا أرادوا الاستمرار على قتاله بجيوشها المنظمة وتيسر لهم ذلك ، فعمل الشريف يصدق عليه أنه إما ان ينفع نفعا تاما أو خاصا بالحجاز وإما أن لا يضر ، ولا يوجد عاقل ينكر مثل هذا أو يذمه ، وكل مسلم عرف كنه سياسة الاتحاديين في الاسلام صار عدواً لهم ، وأقدم أعدائهم في هذا علماء الآستانة والمتدينون فيها وفي سائر بلاد الترك ، وما كان مسلمو العرب إلا متأخرين عنهم في ذلك . وكل عربي مصري أو غير مصري عرف كنه سياستهم في العرب صار عدواً لهم ، وأقدم من عرف ذلك السوريون المسلمون ثم غيرهم

منهم ومن العرب ، ولو كان المصريون يصدقون أخبار المقطم والأهرام عن قطائعهم في سورية لأجمعوا على ذلك ، وقد انفتحت لهم أبواب أخرى للاقتناع . وما تلك لأحد منهم ان ما أتاه جمال باشا من التنكيل والتصليب والتغريب عن الوطن ثبت عنده من طريق الأسرى العثمانيين ومن طريق أمريكة وأوربة ، ثم من طريق الحجاز إلا قبلوه مذعنين ، ولعنوا جميع الاتحاديين ، وسيأتي يوم يصدق فيه الجميع هذه الاخبار والله ليس ببعيد .

السيد عبد الحميد الزهراوي

كان الشهيد السعيد نابغة من نوابغ السوريين ، لا يكاد يلحق به في مجموعة مزاياه قرين ، ما عرفت بلاده كنهه ، ولا قدرته قدره ، على أنها لم تقصر في تعظيمه وتكريمه ، وفي الاحتفال له والحفاوة به أيام [illegible] وأيام قدومه ، إذا عرف الجمهور منه في أواخر حياته كما [illegible] أشراف البلاد المتصرفين خدمة الأمة بكتابة [illegible] وفصاحة اللسان ، وقوة الحجة وجرأة الجنان ، وما كان لمثل الجمهور أن يدرك كنه المزايا والفضائل التي بها كان الزهراوي في حقيقة جوهره من الحكماء الربانيين ، والفلاسفة الاجتماعيين ، وإن تجنت عليه الأيام بالانتظام في سلك السياسيين ، تلك الفضائل التي عرفها له كل من عرفه من العقلاء المنصفين ، وهي استقلال الرأي وصدق القول وقوة الارادة والاخلاص في العمل وإيثار الحق على الهوى ، وتوجيه الهم والهمة إلى المصالح العامة ، وترجيحها عند التعارض على المنافع الخاصة ، بل لم نعلم عنه انه اشتغل في طور من أطوار حياته لمنافعه الخاصة ، وإنما نعلم عنه انه بدأ حياته العملية منذ بلوغ الرشد بإنشاء (جريدة المنير) السرية التي كان يطبعها في حمص بمطبعة الجلاتين ويوزعها في البلاد السورية سراً لخدمة جمعية الأحرار والفرق الأولى والسعي معها لانقاذ الدولة من الادارة الحميدية المستبدة ، فعلق بالسياسة من ذلك الحين وظل مشتغلا بها طول حياته

كان بيننا وبين هذا الصديق العزيز تشابه في النشأة والتربية ، وتشاكل في

الاستعداد والغريزة ، وتقارب الفكر والرأى ، تعارفنا به بالمكاتبة قبل اللقاء ، ثم كان بعد اللقاء كالمحبة والوداد ، لم يزدد بالمعاشرة إلا ثباتاً ورسوخاً ، كان كل منا ميالا إلى الاشتغال بالاصلاح الدينى والاجتماعى وعلاقة ذلك بالسياسة لا تخفى ، ولكن تيسر لكل منا من أمر الاشتغال بالسياسة أو الاصلاح مالم يتيسر للآخر، إذ كانت هجرتنا إلى مصر وهجرته إلى الآستانه

وفى سنة ١٣١٥ التى أنشأنا فيها المنار كان هو محرراً فى إدارة جريدة (معلومات) العربية فى الآستانه ، وكان مايكتبه فيها موافقا لمشرب المنار ، ووقع بيننا مايشبه المناقشة فى المسائل الاصلاحيه (راجع ص ٩٥٠ من الطبعه الثانيه لمجلد المنار الاول) ثم نفته أفكاره من الآستانه إلى وطنه ، وفى سنة ١٣١٩ كتب وهو فى دمشق الشام تحت المراقبة السياسيه رسائله الاصلاحيه الثلاث (الفقه والتصوف) التى نشرناها ولحق بالمجلد الرابع من المنار ثم طبعناه المجموع للطبع على حدته فى مصر ، وقد كانت هذه الرسائل أشد مما كان يكتبه فى موضوعها نقداً [illegible] هناك ، فهاجت عليه حفيظة العمائم فى دمشق [illegible] أنكروا عليه فيها القول بالاجتهاد وبطلان التقليد ، فهيجوا عليه الحكومة فاعتقلته فى الشام ثم أرسلته إلى الآستانه ، ولم يكن سبب ذلك التشديد عليه ، والاغضاء عن اتهموا بالقول بالاجتهاد وابطال التقليد معه فهرة من الحكومه على الفقهاء والصوفيه ان يوجه اليهما انتقاد ، ولا بمجرد الارضاء لعصبية الحشويه الجامدين فى الشام ، وإنما سببه الباطن انه كان نشر فى المقطم مقالة فى الخلافه بامضاء (ع . ز) وهو إمضاؤه الرمزى لكل ما كان ينشره بمصر ، وقد وجدت تلك المقالة معه عند القبض عليه وحاول تمزيقها . وقد أشار الاستاذ الامام إلى هذه الواقعه فى فصل (الاسلام اليوم) من كتاب (الاسلام والنصرانيه) وإنما نذكر عبارته هنا لما فيها من تأييد هذا الصديق الشهيد وهى :

ألم يسمع بأن رجلا فى بلاد اسلاميه غير البلاد المصريه كتب مقالا فى الاجتهاد والتقليد وذهب فيه إلى ماذهب إليه أئمة المسلمين كافه ، ومقالا بين فيه رأيه فى مذهب الصوفيه وقال إنه ليس مما ينفع به الاسلام بل قد يكون مما يزرى به أو مايقرب من هذا ، وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله ، فلما طبع مقاله فى مصر تحت اسمه

هاج عليه حملة العمائم ، وسكنة الأثواب المباهب ، وقالوا إنه مرق من الدين ، أو جاء بالافك المبين ، ثم رفع أمره إلى الوالي فقبض عليه وألقاه في السجن ، فرفع شكواه إلى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله إلى العاصمة ليثبت براءته مما اتهم عليه بين يدي عادل لا يجور ، ومهيمن على الحق لا يحيف ، إلى آخر ما يقال في الشكوى ، فأجيب طلبه لكن لم ينفعه ذلك كله ، فقد صدر الامر هناك أيضاً بسجنه ، ولم يعف عنه إلا بعد شهر ، مع انه لم يقل إلا ما يتفق مع أصول الدين ، ولا ينكره القارئ ، والكاتب ، ولا الآكل والشارب ، اهـ أرسل الرجل إلى الآستانة فاعتقلته السلطة الحميدية هناك أشهراً ، بعد جعل تحت مراقبة الجواسيس زمناً ثم أرسل إلى بلده (حمص) ليكون مقيما فيها تحت المراقبة لا يبرحها (ويسمى مثله في عرف الدولة الرسمي « مأمور الاقامة ») فبقي فيها إلى أن فر إلى مصر سنة ١٣٢٤ وبقي فيها يشتغل بالتحرير في المؤيد ثم في الجريدة إلى أن أعلن الدستور سنة ١٣٢٦ فعاد إلى سورية فانتخب مبعوثا عن لواء حماه وكان من أبرز رجال المجلس وبرز فيه ما كان .

لو كان الزهراوي من طلاب المنافع الشخصية لأمكنه أن ينال منها في عهد عبد الحميد ما نال من كانوا دونه من أرباب الأفكار وحملة الأقلام الذين استمالهم السلطان عبد الحميد وأعوانه وغمروهم بالأموال والرتب وأوسمة الشرف ، ولم يكن جهاده القانوني للاستبداد الذي انقلبت إليه جمعية الاتحاد والترقي بعد الدستور بأضعف من جهاده للاستبداد الحميدي مع الجمعية في إبان صلاحها ومع غير الجمعية أيضاً ، نصرها في الأيام الاولى من عهد الدستور كما نصرها قبله ، وجاهدها بعد أن صار أمر الدولة كله في يدها ، ولو كان من طلاب المنافع الشخصية لنال بمسايرة الجمعية منها ما كان يعلم انه لا ينال بمعارضتها ، وما كنت أرى سنة أتيت الآستانة أحداً من المعارضين للجمعية يرى قوتها فوق ما كانت عليه إلا الزهراوي ، كان من أشدهم معارضة لحزب الجمعية في المجلس وفي جريدة الحضارة التي أسسها في الآستانة ، على كونه من أشدهم اقتناعاً بقوة الخصم وبعداً عن الغرور بما كان يروى من ضعفه ،

وجملة القول فيه أنه بدأ حياته بخدمة الامة والدولة وثبت على ذلك طول حياته ، وان جل عمله كان مع جمعية الاتحاد والترقي ، فهو بعد تلك المعارضة في زمن المبعوثية

اعتقد أن الدولة صارت بيد الجمعية ، وأنه لا يوجد فى الأمة حزب يرجى أن ينتزعها منها ، فلم يبق من طريق لخدمة الدولة والامة الا طريقها ، وهذا الاعتقاد هو الذى حمله على قبول منصب الأعيان أخيراً كما بينته بالبرهان ، وكان جزاؤه من الجمعية التى أفنى حياته فى خدمتها أن قتلته شر قتلة ، وأبقت جثته مصلوبة فى الشام ١٢ ساعة ، ليعلم كل عربى يراها أو يسمع خبرها كيف تكون عاقبة العربى العالم المفكر ، والخطيب المؤثر ، والكاتب المحرر ، عند هؤلاء القوم الذين جعلوا من أصول سياستهم محو العربية من سوريه والعراق ، وحمل البداوة على حرب الجزيرة وايقاع الشقاق الدائم بينهم الى أن يبيد بعضهم بعضا

كان قبول السيد الزهراوى لمنصب الأعيان من الحكومة الاتحادية ، نبهاً لاستياء جمهور طلاب الاصلاح ومحبى الاصلاح للامة العربية العثمانية وسببا لسوء الظن فيه وكثر القول بأنه تحول عن سيرته التى كان عليها طول عمره فآثر منفعته الشخصية على مصلحة أمته العربية ، فتحول ذلك الجمهور الذى كان يتوهم بعض ... الى الخوض فيه ولو كان عقل الجمهور يدرك كنه تلك الفضائل التى وصفناه بها بحق لما صدق أن مثله يتحول بعد سن الخمسين من عمره الى ضد ما ثبت عليه من أول نشأته ، وما الذنب على العامة فى ذلك وإنما الذنب ذنب خواص الاذكياء والمتعلمين الذين سارعوا الى الخوض فيه فقلدتهم العامه ، وكان يجب عليهم التروى والتثبت فى أمر هذا الحدث الجديد ألهذا العامل المستقل عذر فيه واجتهاد أم لا ؟ ثم التثبت والتروى فى الطعن بمثل هذا الرجل منهم إن ثبت لهم أنه مجرم سياسى متعمد ، لا مجتهد مصيب أو مخطىء ، فان أول نتائج الطعن فى مثله — وقل ان يوجد مثله فى طهارة سيرته الشخصية والسياسيه — هى زوال ثقة الامة من زعمائها بقياس أنزه الصادقين على أخس المنافقين ، وما أولئك الطاعنون الا جاهلون يلم من الزهراوى مايشى مثله انفسه ، أو نفس ساء ظنه لسوء نيته وعمله ، أو غيور شديد العصبيه ، قليل الرويه ، يبادر الى ارضاء حميته ، ولا يحسب حسابا لعاقبة قوله وعمله لم يكن الزهراوى من أهل الاهواء الذين يجعلون مصلحة الأمه والدولة تبعا

الأغراض ، ومرضاة للعواطف والأحقاد ، بل كان يحب العمل المبنى على القواعد المعقولة والرغائب الأمة ، فلما رأى أن الاتحاديين يحاولون إماتة أغراضهم الضارة بالأمة العربية وبوحدة عناصر الدولة - بقوة مجلس المبعوثين أحب أن يحاربهم بسلاحهم فكان من المؤسسين لحزب الحر المعتدل ثم لحزب الحرية والائتلاف الذى تكون من هذا الحزب الذى أكثر أفراده من العرب، ومن حزب الأهالى الذى أكثر أفراده من الترك ، وكان الزهراوى وكيل الرئيس فى هذا الحزب ، وقد ظفر هذا الحزب بالاتحاديين لجذب إليه الجم الغفير من عسكريهم وضباطهم ، ثم أسقط وزارتهم واستبدل بها وزارة مختار باشا التى لم تكن هى ولا وزارة كامل باشا التى جاءت بعدها ائتلافية ولا اتحادية ، وإنما كانتا على كراهتهما لسيرة الاتحاديين ، غير متعصبتين لحزب الائتلافيين ، ولا موافقين لهم فى كل شىء ، ولذلك سهل على الاتحاديين إسقاط وزارة كامل باشا ، وقد أخطأ الائتلافيون بعدم جعل الوزارة من حزبهم

وقعت حرب البلقان فى أيام وزارة مختار باشا تكسرت الدولة فيها وألفت وزارة كامل باشا العدائية أى الدولة بالصلح ، وفى أثناء ذلك جاء الزهراوى مصر قاصداً الذهاب الى الآستانة لقرب موعد فتح مجلس المبعوثين وقد أقنعناه بأن لا يعجل السفر لما يخشى من وقوع الفتن بالآستانة ، وقد وقع ما كنا نتوقعه بهجوم الاتحاديين على الباب العالى وقتلهم ناظر الحربية فيه وإسقاطهم وزارة كامل باشا والقبض على أزمة الحكومة ، ولكن صاحبنا كان يصبر على السفر ويظن ظناً كاد أو كان يسميه يقيناً بأن الاتحاديين لا يلبثون أسبوعاً حتى تسقطهم الأمة وتستبدل بهم غيرهم فأقنعناه بأن يصبر حتى تصدق الأيام ظنه أو تكذبه ، وما اقتنعنا إلا بإدلال الصداقة على أنه كان يرجع عن رأيه إلى رأيى مدة يقتضيها كما نص على ذلك فى كتابه الأول ، وإنما صرحت بهذا لأنه من مقدمات الحجة التى أذكرها بعد نشر ذلك الكتاب .

وفى أثناء حرب البلقان تأسس حزب اللامركزية بمصر ولم يدخل هو فى الحزب ، لأنه لم يكن ينوى الاقامة بمصر ، وإنما رشحه الحزب لرياسة المؤتمر العربى لمكانته العلمية والاجتماعية ، ولموافقته الحزب فى مقاصده الإصلاحية - فانتخب رئيساً له فى باريس ، وعقد معه الاتحاديون ذلك الاتفاق المشهور

كنت قد فصلت لكم إذ جئت باريس كيف وجدت أمر مؤسسي فكرة المؤتمر فوضى وكيف تعبنا في ستر الأمر وإيجاد المؤتمر مرونا بتوفيق من الله تعالى فوق المأمول، وبعد انقضاء المؤتمر تفرق الجمع الذي لفق تلفيقا، ثم بعد قليل عقد عبر البحر، ثم ذهبوا إلى بلادهم من طريق استانبول، وبقيت بأمزيري وحدي أمثل الفكرة، وبقي خليل زينية وأيوب ثابت وهما لم يرشفا من مشرب الجامعة العربية ولا قطرة واحدة، حتى ولا من الجامعة السوريه، وإنما همهما بيروت وحدها لاشريك لها ولكن لأنهما متصلان سايرانى وسايرتهما وتواددنا جيداً حتى سفرى، ولم يكن مثل هذا الوداد ولا ريبه بينهما وبين رفقتهم البيروتيين المسلمين

لو عجلت تلك الأيام ورجعت على الفور إلى مصر لبقيت المسألة مقطوعة بتراء، إذاً يكثر استهزاء الأفراد والجماعات والأقوام بأشخاصنا وبجماعتنا وقومنا، لكن الله سبحانه سلم من هذا، وأقدرني على الصبر هناك ممثلا الفكرة مدة خمسة أشهر – وما هي بالقليلة ولا الكثيرة – [illegible] ووقفت فيها على كثير، وعظم فيها اختباري لأوربا، وما خرجت إلى [illegible] جئت بعد ذلك إلى استانبول لأرى ما جد فيها لأن [illegible] والمعرفة على البعد كثير من ما تحتها فهو صحيح، وما أكثر العلم المبني على مأخذ غير صحيح

بعد وصولي بقليل عرفت كثيراً من الأحوال الحاضرة هنا، وبعد مدة أخرى عرفت أكثر وكدت أظنني اكتفيت وأحطت كل الإحاطة ولكن الآن تبين لي أنه لولا الصبر والتأني الآن مكثي القاطر سبحانه منها لرجعت بمعرفة غير كافية، ولذلك أصبحت لا أجسر أن أقول تمت إحاطتي وإنما أقول أصبحت يجوز لي أن أفصل وأشرح بشيء من الطمأنينة، وإن تأخير هذا التفصيل والشرح كان أنفع وجاء الموفق وقته.

الشرح ههنا يتعلق بثلاثة مواضيع (أو موضوعات) (١) أوربا والعثمانية (٢) الاتحاديون وغيرهم (٣) رجال الاصلاح الحقيقي وأبناء العرب هنا وفي الجهات الأخرى. وإني أبدأ لكم بالأول تقصر البحث فيه وأشفع بالثاني وأخرت الثالث لطوله وطوله لتوقف التقدم وكثير من أعمالنا على الاحاطة بهذه الحقائق المشروحة فيه (أوربا والعثمانية) لقد كشفت أوربا آخر ستار من ستر السياسة في المسألة

المتباينة وقررت التداخل فى سائر شئونها وإنما لايزالون مختلفين بعض الاختلاف فى كيفية هذا التداخل وكميته وصورة توزيعه فيما بينهم ؛ وليس فى أوربة اليوم موضوع مقدم على هذا الموضوع ، ولا يمضى ثلاثة أشهر حتى تتمخض البلقان عن ذلك الشكل الجديد الذى يتفقون عليه ، والذى أظنه ان الدولة ستبقى بعد ذلك وتعيش أحسن مما كانت عائشة لأن بعض التداخل طب ولست متغاليا إذا ذهبت إلى أن الموت أقرب إليها مع عدم التداخل البتة منه مع شىء من ذلك ، فانا إذا قلنا بعدم التداخل البتة فحينئذ تعلق كل واحدة سيفا لانشاب الحرب عليها فتؤخذ بهذه السكتة دفعة واحدة .

الاتحاديون وغيرهم : الاتحاديون معروفون فمن غيرهم ؟ لا يوجد الآن حزب سياسى آخر (إلا أن يكون خفيا) ولم أشر شيئا من هذا وحيئذ لا نجد مقابل الاتحاديين إلا جماعات الأجناس كجماعات الروم وجماعات الأرمن وجماعات العرب .

تعرف أن للروم جماعات وللأرمن جماعات فهل للعرب مثل هذا ؟ ألم تنظر :
أولا – الروم كلهم جماعة واحدة يرأسهم البطريرك والكهنة يسايسه ويطوعه بسياستين روحانى وجسمانى ، وهكذا الأرمن ، أما العرب فليس لهم مثل ذلك .
وثانيا الروم والأرمن لهم جمعيات سياسية منظمة مرتبة غنية وليس للعرب مثل ذلك ، اللهم إلا جماعتنا فى مصر وجماعتنا فى بيروت ، إذن غير الاتحاديين هم الروم والأرمن وجماعتنا فى مصر وجماعتنا فى بيروت .

فالاتحاديون هم أولياء الأمر مباشرة وهم اليوم يشتغلون بمزائم شديدة فاشية وناوون نية قاطعة أن يجددوا شباب الدولة بقدر ما تسمح الظروف ، ويشتهون أن يخلص إليهم العرب ويساعدهم فضلاؤهم فى هذا السبيل ، ويعترفون بخطيئاتهم الماضية وينوون أن لايعودوا إلى مثلها بقدر الامكان ، أنا مؤمن بقلوبهم وأقوالهم هذه كل الايمان لأدلة كثيرة ظهرت لى ، ولكننى مرتاب من جهة قابليتهم لتطبيق العمل على النية ، وعلى كل حال أرى أن عدم تركهم وعدم تهور من تركهم ، ويرجى به أن تقوى قابليتهم ، فان شئتم أن تخطئونى بتحسين الظن إلى هذه الدرجة – كما أشرتم إلى ذلك فى كتاب ... فانى لا أعطيكم بالصفقة لأنى أجل رأيكم أكثر

من رأيي · وإنما أرجو أن يكون في خطأي شيء من البركة ، أرجو ذلك من مصداق قوله سبحانه « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

هذا وصف الاتحاديين بما هم عليه اليوم . أما الروم فقد قلوا في المملكة وقصاراهم أن يحافظوا على ما بيدهم من امتيازات البطركية وحق الميمونية وسيقل الالتفات اليهم ، وأما الارمن فهم اليوم آلة بيد روسية وسيتم لهم في الميمونية حظ قريب مما يأملون ، وأما نحن معشر العرب فان أحاكم الآن بعتبر تمثل جماعتنا وقد فصلت ما تم على يدي في الكتاب الذي أرسلته الى الاخ الرفيق في البريد الماضي وههنا سأزيد

(٢) رجال الاصلاح الحقيقي وأبناء العرب هنا وفي الجهات الأخرى :

ما أظنكم - استغفر الله - ما أعتقد أنكم في حاجة الى بيان أن رجال الاصلاح الحقيقيين غير كثيرين ، وما أعتقد أنكم تعرفون منهم أكثر من ثلاثة أربعة ، أعني رجال الاصلاح الحقيقيين من جمعوا في مشروع الاصلاح بين صدق النظر وصدق العمل ، من كثرت تجاربهم وعرفت دروبهم وكثرت حركتهم وشهد ماضيهم ، من كثر اختلاطهم بمختلف الطبقات ، ووقوفهم في مختلف الحركات ، وصبرهم على مشروع العقبات ، من امتزجت روحهم بحب النظام الذي يحبه الله وكره الفساد الذي يكرهه الله ، وامتزجت سيرتهم بأخبار معامع الجهاد الاصلاحي ، من شربت أفكارهم معنى الرابطة وأفئدتهم محبتها وتعشقها ، فنحن لقلة هؤلاء موقوفون أمام حاجتين عظيمتين - الحاجة الى تكثيرهم ، والحاجة الى اشتغال هؤلاء مع من ليس من جنسهم وطينتهم ، ثم نحن مع قلتهم وصعوبة اشتغالهم مع غيرهم أمام مشكلين عظيمين ، الاول السبات الذي الامة فيه والثاني الجشع الذي أوربا فيه

أترك تفصيل هذا الاجمال لحكمتكم وحسبناهي في كل موضوع ، وآخذ الآن بحكاية حال أبناء العرب هنا لانكم علقتم الأمل مرارا على صنف منهم ههنا

العرب هنا ثلاثة أصناف : متاجرون ومتعلمون ومأمورون ، فالصنف الاول لا في العير ولا في النفير من جهة السياسة والاصلاح ، ثم هو في غاية القلة ، والصنف الثاني أولاد في ناشئة العمر لا يفقهون في السياسة ولا تليق لهم ، والصنف الثالث أربعة

أقسام الضباط والمأمورون المنصوبون في بعض الوظائف والمأمورون المتقاعدون المقيمون هنا والمأمورون المعزولون الذين جاءوا لينصبوا :

فأما الضباط فلا تجربة لهم في هذه المسائل البتة والأولى عدم دخولهم فيها فإن هذه التجربة القليلة التي سأقصها الآن زهدتني في كل سياسة يشترك فيها الضباط منا؛ ذلك أن ... ناقم اليوم على الحكومة فيشتهي لأجل هذا زعزعة الدولة ونسفها نسفا ، وهو لأجل ذلك ناقم على ائتلافنا مع الحكومة ومضاد له لأنه على زعمه يؤخر حركات العرب، ولا أدري ما هي حركات العرب وأين تسير وأين ترمي وهذا يجتهد أن يجمع حوله بعض أولئك الأولاد وينفرهم منا ومن صنيعنا ولكن لا ينجح بحوله تعالى ، ومن جهة أخرى هو يحافظ على ظاهر الصداقة بيننا ، وقد أردت اختباره فوجدته يجنح إلى مصالحة أولياء الأمور وحينئذ يرضى من كل شيء ، فانظر يا عزيزي إلى الذين يعدون أنفسهم في مصاف رجالنا .

أما المأمورون المتقاعدون فتلك [illegible] لا يرضون [illegible] شيء ولا يستطيع عمل شيء .. وأما المأمورون المعزولون فلا هم لهم إلا [illegible] المنصب

وأما طلاب المأموريات فجياع مساكين لا يفهمون من الإصلاح إلا المأمورية، إن جاءت فقد جاء الإصلاح وإن لم تجئ فقد منع الإصلاح ومن هذا التفصيل يظهر لك أن العاصمة في حالتها الحاضرة ليس فيها أبناء عرب تستطيع جماعتنا أن تعتمد على أحد منهم، أو أن تعمل صلة ورابطة مع أحد منهم، اللهم الآن يكون (فلان وفلان) وكل ما أخبركم عنه (فلان) فهو مراء بقيمة جاءه أخوكم الشماع فلم يجد فيه شيئا . وبعض أولئك الأولاد يحسدون الشاب عبد الكريم وبعضهم لم يتمكن من المأموريات إما لأبيهم أو أخيهم أو ابن عمهم مثلا ، فمن هنا أكثروا عليه من قيل وقال وكله هراء وهواء

وأما العرب في الجهات الأخرى فهم أهل سوريه وأهل العراق وأهل الجزيرة الخلص فالسوريون والعراقيون حضر قد ألفوا الذل وتعودوا الاستخدام والاستكانة لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا ، لا يساعدون ولا ينوون أن يساعدوا ، لا يهبون ولا يروق لهم أن يوقظوا . وأما أهل الجزيرة الخلص فهم الأهل وهم الله الخير

وشد سواعدهم ، أولئك يجب وصل الرابطة بهم من غير أن نقطعها من الحضر على قلة غنائهم . وقد فهمت من كتاب الأخ (فلان) كتبهاوا ستنبطت كثيراولو كان فى وسع البشر أن تتوزع أرواحهم على أمكنة متعددة لكانت روحى أوزاعا على اليمن وعسير والحجاز ونجد وحضرموت ولكن نظرية الصوفية فى هذا الباب لايمكن تطبيقها(١)

أنظر يا عزيزى أنا لازم لهناك كما تشير ولازم الى هنا لأن هنا عمل عمل ليس بقليل ، فأنى أرجو أن يكثر بوجودى هنا عدد رجالنا الذين يعتمد عليهم فإن رضيت عن هذا الرأى فلديك عملان معجلان وعمل يمشى مع الزمان وأنا معك فيه على بعد المقر ، فالأول من المعجلين تبشيرى بطراف عن رضائك خاصة وهو الاهم ، ورضاء الرفاق عامة وهو مهم ، والثانى منهما حملك الرفاق على تقديم تلغراف الصدارة يحمدون فيه هذا التعيين ويجعلونه دليل إقبالهم على تنفيذ الرغائب كلها بعبارة رقيقة تشويقيه ، أما الثالث فهو ما بيننا من أمر إيجاد الرجال الذين يعتمد عليهم وتوزيعهم بقدر ما يساعد الزمان والكيفيات [illegible] والعمل

وإن لم ترض عن هذا الرأى فاكتب الى مفصلا ومبينا كل جهة من جهات الموضوع ، موافقا من عهدت من يدع رأيه أخيرا الى رأى وليه

هذه هى الخلاصة المفصلة وإليك خلاصة الخلاصة ، وهى أن اليأس لايجوز بحال من الاحوال ، ولكن الأمة فى كل أطرافها ليست بحالة يعتمد عليها فى شيء ، وأنه مع هذا لايجوز اهمالها ، وكذا لايجوز اهمال من يهدم أمر المملكة ويركهم وحدهم ، وأنه لابد لنا من رجال ههنا ، وأن أكثر ما يتصرف به الرواة من الاخبار غير صحيح ، وإنى منتظر أمركم بسرعة ، وأن شوقى عظيم

والسلام على الأخ السيد صالح وجميع المعارف سلم الله تعالى الجميع ؟

عبد الحميد الزهراوى

---

(١) كنت كتبت الى الأخ الذى أشار اليه ثم اليه هو أن عرب الجزيرة هم صفوة العرب وأعظمهم استعداداً فإن كان هناك اصلاح عربى فيجب أن يكون لهم حظ منه وأن تعنى بشأنهم أكثر من غيرهم

(المنار) من هذا الكتاب وكتب أخرى بمعناه يعلم رأى الرجل الذى بنى عليه اجتهاده ، ومنه أنه مؤمن بحسن نية الاتحاديين ، وتمنيهم الاتفاق مع العرب ، وبهذا كان يحاول إقناعنا ، ولم يكن يخفى هذا على الاتحاديين ، ولذلك نجزم بأنهم قتلوه لأنه من أنجب نجباء العرب لا لذنب آخر (والله عزيز ذو انتقام)

وإنما نشرت هذا الكتاب السرى من كتبه بنصه فلم أحذف منه إلا أسماء الأحياء ليكون حجة على فريقين من الناس - فريق الذين قد يظنون أن الاتحاديين ما قتلوا مثل هذا السيد الجليل بعد أن رفعوه إلى مقام الأعيان إلا لأنهم عرفوا له ذنباً كبيرا كالخيانة للدولة أو الجمعية المتصرفة في الدولة . وفريق الذين ظنوا أنه خان قومه العرب بتركه الدفاع عن حقوقهم بمنصب الأعيان الذى رشاه به الاتحاديون ، وإنما يتم ظهور هذه الحجة ، ببيان ما كان بينى وبين هذا الصديق الصديق من الصلة والرابطة

يرى قارىء كتابه أنه قال لى فيه عن نفسه ... من يدع رأيه أخيراً إلى رأى وليه ، وقد أشرت إلى هذه الكلمة فى المقدمة التى قدمتها على هذا الكتاب ، وأقول إنه يعنى بهذا أنى إذا حتمت بعد المناقشة معه فى الموضوع وجوب تركه لمنصب الأعيان واشتغاله بعمل آخر فى غير الآستانة فإنه يقبل ذلك .

وقد كانت طريقتنا فيما يختلف رأينا فيه أن يدلى كل منا بحجته ، فمن نهضت منا حجته قبلها الآخر ، فإذا لم ترجح إحدى الحجتين وكانت المسألة مما يترتب عليها عمل يرجع هو فى العمل إلى رأى أخيه . ويدل على مكانة هذا الأخ عنده جعله رضاءه عنه فى هذا الأمر أهم من رضاء الحزب الذى كان سبب ذلك ، وهو صادق فى قوله هذا وقوله ذاك لا ريب عندى فى صدقه ، وما قلت هذا فى بيان كلمته إلا ليعلم المطلع عليه أن الرجل لو كان يكذب ويخدع لم يكن يكذب علىّ ولا يخدعنى ، ولو كان يفعل ذلك لحاول إرضائى بأنه يعامل الاتحاديين بمثل ما يعاملوننا به من الخلابة السياسية ليستفيد منهم فى طور ضعفهم وحاجتهم إلى استرضاء العرب ببعض الحقوق ، وما كان يكتب إلى - وهو معتقد انى ساخط عليه ، ومعتقد تركه الكتاب اليه - انه مؤمن بحسن نية الاتحاديين وصدقهم فى هذه المرة ، ولكنه كتب

هذا وهو يعلم أني أعده سذاجة منه وغلواً في حسن الظن

وأزيد على هذا اني عاتبته على بعض ماجاء في هذا الكتاب وغيره عتابا تهلل جاءت فيه كلمة جارحة فكتب إليّ رقعة أودعها كتابا ، قال فيها مانصه :

« كلمات بيننا »

« في كتابكم الأول كلمة لا أكتم عنكم أنها كسرت قلبي ، إذ لو كتمت هذا لكان خيانة للإخاء النظيف الصافي ، ذلك أنكم بنيتم على نظرية إغراقي بحسن الظن بالقوم أن هواء الآستانه طمس على عقلي وقلبي

« وأخوكم يا عزيزي قد عرفتموه بعد أن كان عاش في هذا البلد سنتين ، وعرفتموه في الآستانه تقريبا ، فلولا ذلك رجعت الى نفسي لأرى تغلغل أثر البوسفور فيها

« ولكن كما لم أكتمكم هذه الحقيقة أتحدث أمامكم بما من الله تعالى به من حمل حدتكم القلمية هذه على ما يشبهها من حدتكم اللسانية التي تأنس بها أنفسنا بجعلكم الذي هو أغلب وأصدق دلالة على كرم نفسكم على أني أريد بشرفكم أن انكسار القلب الذي أشرت إليه كان آنياً وأعقبه شكر حميتكم العالية . أما أخوكم كتبنا فقد كان عاماً حتى شمل الوالدة ، فلا تحملوه على ذلك السبب ولكن أبى كرمكم إلا يطيب القلب فأخصكم بشكر على هذا » اه

فمن كان بينهما مثل هذه الحرية في الخطاب والعتاب لا يغش أحدهما الآخر لو كان من دأبهما الغش . وأحمد الله تعالى اني لم أبتل بهذه الرذيلة ، واني أبرىء منها صديقي الشهيد السعيد كما أبرىء نفسي.

هذا واني لم أكف عما دار بيني وبينه قدس الله روحه من المكاتبات في هذه المسألة بل دعوته إلى زيارتنا بمصر فأجاب ، وكنت أعقد معه مجلسين للمذاكرة في كل يوم وليلة : مجلساً قبل النوم ومجلساً في الصباح . فرأيته بعد ذلك كله معتقداً أن الاتحاديين عازمون على إرضاء العرب ، وأنه يجب مسايرة العقلاء منا لهم على ذلك ، وانها تنال بهذا من الحقوق ما لا يرجى أن تناله بالسعي مع مخالفتهم

وقد وافقته على بقائه في منصب الاعيان والاستمرار على هذا السعي لانه إما أن ينفع وإما أن لا يضر

المشانق فى سورية ـ شنق الزهراوى

جاء فى جريدة الأهرام تحت هذا العنوان ما نصه :

تلقت المنادات التى يوثق بروايتها أن السيد عبد الحميد الزهراوى حوكم فى دمشق أمام المجلس العسكرى فحكم عليه بالموت شنقا فشنق . ولربما خفف من لوعة الأسى عليه شنق من تقدموه من عظماء الأمة السورية وأمراء المسلمين على وجه التخصيص كالأمير عمر الجزائرى ابن الأمير عبد القادر وشفيق بك المؤيد من أكبر رجال سوريه ورشدى بك الشمعة من صفوة أعيانها وشكرى بك العسلى وعبد الوهاب بك ومحمد المحمصانى وسليم بك الجزائرى وعبد الغنى العريسى الخ ولكن الزهراوى كان يمثل طائفة خاصة وفكرة ثابتة وسياسة جديدة تتراوح بين طائفة علماء الدين الاسلامى وغيرها من الطوائف الراقية والبحث فى شؤون طائفة الزهراوى فى سورية وبلاد العرب من المباحث الطريفة الجليلة التى تبين الصلة بين الماضى والحاضر والقديم والحديث بل تظهر التدرج الذى كان ينتظر على يد أولئك الذين أزهقت الحبال أرواحهم ، وقضت بعمامهم وعلمهم ، وأماتت غرسهم قبل أن ينبت وما نبت منه قبل أن يزهر ويثمر

فالمسلمون فى سوريا تأخروا عن إخوانهم النصارى واليهود والدروز فى طلب العلم . لأن القدماء من أكابرهم وأغنيائهم كانوا يعتقدون أن طلب العلم إنما يراد لطلب الرزق فالوجيه الكبير المتوافر رزقه كان يعد من العار على أبنائه أن يطلبوا العلم للارتزاق « من شق القصبة » وضاعف فى ذلك أن المدارس كلها كانت أمرانية ، إما للأجانب وإما للمسيحيين الذين تأدبوا بآداب الأوربيين فحذوا حذوهم وساروا فى العلم سيرتهم . وقد لقيت هذه الفكرة تشجيعا من الحكومة بل ربما غرست الحكومة نفسها هذه الفكرة فى الصدور حتى يظل المسلمون على حالهم فلا يطلبون إصلاحا ولا يطالبون بحق ، وليس المسيحيون وسواهم ممن يعملون تأثير أو نفوذ لأنهم الاقلية ، ولهذا السبب لم يتمتع أحد من أبناء مسلمى سوريه بذلك الانعام الذى أنعم به ابراهيم باشا بن محمد على باشا على لبنان وسورية بأن يعلم طائفة

منهم في مدارس مصر العالية ، وانحصرت تلك النعمة حتى عهد الاحتلال بأبناء المسيحيين السوريين وحدهم

وظلت الحال على هذا المنوال ولا مدارس ولا مكاتب للمسلمين في سورية حتى إن دخل أوقاف المدارس والمكاتب فيها كان يجبى للآستانة إلى أن زاد احتكاك القوم بالأوربيين ورأوا بأعينهم ومسوا بأيديهم فائدة التعليم فطلبوه لأبنائهم إما في مدارس الأجانب في بلادهم ، وإما في مدارس الآستانة ، حتى أن بعض طلبة العلوم الدينية سبقوا إلى ذلك سواهم أو ماشوهم في هذا السبيل ولكن على غير رغبة الحكومة وإرادتها ، فكانت تسخط النقم على من يقدم العلم وعلماء الأجانب كالشيخ النبهاني الشهير يذم مدارس النصارى .

ومن هؤلاء الطلبة الدينيين السيد عبد الحميد الزهراوي من أشراف حمص وسلالة بيوتها الكبيرة ، بدأ طلبه في بلده وأتمه في الآستانة ، وتعلم هناك من السقطاء الترك الأحرار [illegible] السياسية والاجتماعية ، فكان أول ظهوره برسالة ألفها في المعتقد الديني [illegible] في طعون مشايخ الطرق فشكوه إلى السلطان عبد الحميد حتى نفاه وأقصاه إلى دمشق (١) ولكن الوسطاء توسطوا له — وكان الظلم في ذلك العهد يدفع بالوساطة خلافا لما نراه اليوم — فتركه حراً ، وأطلقه من كل قيد فعاد السيد الزهراوي إلى الآستانة واشترك بالمظاهرة الودية التي قام بها فريق من العلماء والكتاب أمام السفارة الانكليزية بعد انتصار الانكليز على البوير في الترنسفال فلم يغتفر له ولرفاقه السلطان عبد الحميد تلك المظاهرة لا لأنهم هنأوا انكلترا بنصرها ، بل لأنهم مثلوا الأمة العثمانية والشعب ولم يكن يغضبه أمر كهذا الأمر حتى أن رقباء الصحف والمطبوعات (المكتوبجيه) حذفوا من قواميس اللغة كلمة (وطن) و (شعب) و (أمة) و (جمهور) الخ وما شاكل ذلك من الألفاظ ، فسجن السلطان على أولئك المتظاهرين مدة ثم فرق شملهم وأرسل كل واحد منهم إلى جهة إلى أن تمكن السيد الزهراوي من الفرار إلى مصر كما فر قبله السيد عبد الرحمن الكواكبي وكل حر في تلك البلاد من عرب وترك وغيرهم

(١) (المنار) الصواب في هذه المسألة ما بيناه في هذا الجزء.

ويمتاز الزهراوي وأمثاله من رجال الدين المصلحين على سواهم من المتدينين أنهم غير متعصبين بين طوائف الشعب وفرقه فهم يحترمون العقائد المقدسة لكل طائفة وفي الوقت ذاته يؤيدون المصلحين في إصلاحهم، فقد كانت طائفة الإسماعيلية في سورية تجمع العشور والنذور وترسلها إلى أغاخان في الهند لأن معتقدها ومذهبها يقضي عليها بذلك، فحدث بعد إعلان الدستور أن هذه الطائفة الصغيرة جمعت ما تبلغ قيمته نحو عشرة آلاف ليرة فصادرتها الحكومة ولكن السيد الزهراوي الذي كان يومئذ من أعضاء مجلس النواب انتصر لتلك الطائفة وقاوم الحكومة وجاهد في هذا السبيل حتى قرر مجلس النواب أن تنفق تلك الأموال في تعليم تلك الطائفة ولا تصادر لخزانة الحكومة كما فعلت وزارة الداخلية ولكن القرار لم يتجاوز الورق

وكان السيد الزهراوي يقول باتحاد الطوائف العربية بعامل اللغة والمنفعة والأصل والسلالة فأنشأ جريدة الحضارة لهذا الغرض، وكان من محرري جريدته رزق افندي سلوم الذي شنق في دمشق وهو من بني حمص كان قد ترهب ولكنه خلع ثوب الرهبنة و[illegible] رابطة محبة ووحدة الأفكار [illegible] بينهما وهذا السلول فكأنهما [illegible] [illegible] والعلة الوطنية وكان الزهراوي ككل أديب في بلاده اتحاديا بحتا على مذهب الاتحاديين الأولين الذين نالوا الدستور و «الاتحاد والترقي والنجاح» ولكن لما ذهب أولئك الاتحاديون الأولون ومزق شملهم، وخولفت مبادئهم ومذاهبهم اتفق مع المرحوم شكري أفندي الذي توفي في مصر منذ عهد قريب على تأليف حزب الأهالي، ثم ضمت الفرق كلها وألف منها حزب الائتلاف على قواعد ومذاهب فرقة الاتحاد والترقي كما كانت هي عهد زعامة صادق بك وإخوانه وأقرانه، إلى أن فشلوا في مهمتهم، فوجه نظره شطر العرب حيث لا أحزاب ولا فرق بل مطالب إصلاحية قاعدتها انتفاع البلاد بما يجبى منها من الضرائب وبأوقافها، فرأس المؤتمر العربي الذي عقد في باريز — لأنه لم يسمح لهم بعقده في بلاد الدولة — وهناك كتب الوثيقة المشهورة مع مندوبي الاتحاديين وعاد إلى الآستانة مع رسول الاتحاديين عبد الكريم قاسم الخليل الذي كان أول المشنوقين في سورية والهادي الذي تلاه والشيخ أحمد طبارة الذي حكم عليه بالإعدام، فعين الزهراوي

في مجلس الأعيان إلى أن شنق

ومما امتاز به هؤلاء جميعا شدة عصبيتهم العربية ، وشدة عصبيتهم الجنسية العثمانية ، حتى كان الزهراوي يقول عند ذكر مطمع دولة من الدول في أملاك الدولة العثمانية « ان هذا ينال منا بعد أن تزهق أرواحنا » وله في ذلك مناقشات شديدة مع أصدق أصدقائه (الصواب مع بعض معارفه لا أصدق أصدقائه)

نقول هذا لا تأبيناً للسيد الزهراوي بل بياناً للحقيقة عن تلك البلاد وأهلها ومجهول زعمائها الذين ذهبوا جملة للجريرة إلا أنهم طلبوا إصلاحا يقيهم البلاء واتقاء مطامع الطامعين في أرضهم و بلادهم ، حتى أن الشيخ أحمد طبارة لما عاد من أوروبا غير متبرج سياسته، وبعد أن كان يتمحض لذكر المدنية الأوربية أخذ يكتب ويحث أمته على الاقتباس من محاسنها فكان يكرر قوله : « إنا لا نفقد بلادنا ووطننا الا بالسير على مناهجهم » تلك طائفة ذهبت اليوم ولكن لهذه الطائفة مذاهب ومبادىء إذا بقي قومها وعشيرتها من بعدها ويعملون بها قد تكون نتيجتها خيراً وإلا فقد ذهبت الرؤوس وبقي القوم كالقطيع من الأغنام بدون راع تساق فتسير إلى حيث يراد منها لا الى حيث تريد لأنها بعد قطع رؤوسها باتت بلا إرادة

(المنار)

هذا ما نشر في جريدة الأهرام عند وصول نبأ شنق السيد الزهراوي إلى مصر وفي بعضه نظر أو إيهام ، تختلف فيه الافهام ، وقد رأينا من حق صديقنا رفيق رزق سلوم الذي ذكرته الاهرام في كلامها عن السيد الزهراوي أن نقول في نشأته كلمة وجيزة تحفظ في تاريخه ويظهر بها سبب شنقه وشنق جورج الحداد من شبان نصارى سوريه مع من شنق من زعماء المسلمين ونابغيهم بتهمة السياسة العربية

﴿ رفيق رزق سلوم المحامي ﴾

نبت هذا الفتى في بيت من أكرم بيوت الروم الارثوذكس في حمص وتلقى التعليم الابتدائي في إحدى مدارس الطائفة فيها ، ثم أرسل الى دير البلمند بالكورة (لبنان) فألبس لباس خدمة الدين ودخل مدرسة الدير الدينية ولكنه لم يخلق

مستعداً للرهبانية والخدمة الكنيسيه ، وإنما خلق كبير الاستعداد للحياة الاجتماعيه السياسية ، فلم يتم مدة المدرسة بل خرج منها ودخل المدرسة الكلية الأمريكيه في بيروت ، ثم سافر إلى الآستانه بعد الانقلاب العثماني فدخل أحد مدارسها الاعدادية ثم مدرسة الحقوق وقد أخذ الشهادة الدراسيه منها واختار أن يكون محاميا

كان رفيق مريدا وتلميذا للزهراوي في أفكاره الاجتماعيه ، عاشره قبل منه وهو أنبغ رجل من أشرف بيت في حمص أن في مسلمي البلاد فئة تسعى للاصلاح الوطني سعيا لاشائبة فيه للعصبيات والاحقاد الدينية ، ولما جاء الاستانة بمساعدة الزهراوي رأى جميع طلبة المدارس الرسمية العالية وكلهم من المسلمين على هذا المشرب الذي شرب كأسه الأولى من يد الزهراوي فانتظم في سلك أعضاء المنتدى الأدبي وانتخب وكيلا للرئيس فيه ، وكان حظه من اللغة العربية أوفر من حظوظ جمهور إخوانه أعضاء المنتدى الذين لم يتعلموا شيئا في غير مدارس الدولة ، فكان خطيباً مفوهاً وشاعراً [illegible] في الكتابة إنشاءً وترجمة وكان يصحح له ما ينشره في جريدة الحضارة [illegible]

تمكنت النزعة العربية من نفس هذا الشاب المهذب بما كان يبقي غرسها في نفسه مما كان يسمعه من كلام مدرسي الترك وطلابهم في مدارس العاصمة من الحث على العصبية التركيه ، وما يقولون في العرب والعربية ، وما كان يقرأ في جرائدهم وكتبهم ، وما يقف عليه من أخبار جمعياتهم ، فكان يقابل غلو متعصبي الترك بجنكيزخان وهلاكو خان المفسدين اللذين دمرا المدنية العربية الاسلاميه بنظم القصائد في مدح النبي العربي الأعظم ﷺ وإنشادها في احتفال المولد النبوي الشريف في المنتدى الأدبي ، فهذا هو السبب الحامل لجمال باشا السفاك الاتحادي على شنق رفيق رزق سلوم مع السيد الزهراوي وإخوانه وأخدانه من مصلحي العرب ، ولا نعلم له ذنبا إلا هذا ، فانه قضى حياته السياسية كلها في الآستانه ، وكان على رأي أستاذه الزهراوي في وجوب السعي إلى ترقي العرب في حجر الدولة العثمانيه . وكان جورج حداد على هذا المشرب أيضاً . ولكنه كان من أعضاء حزب اللامركزية وكفى بذلك ذنبا عند جمال باشا يقتضي القتل والصلب

البلاغ الانكليزى الرسمى

فى شأن العرب والسلطة الاسلامية

أرسل قلم المطبوعات البلاغ الآتى الى الجرائد فى القطر المصرى

مصر فى ٢٨ يوليو سنة ١٩١٦

نشر فى لندن اليوم البلاغ التالى

« منذ سنين والعرب المتذمرون بسوء الحكم التركى ينتظرون اليوم الذى يتمكنون فيه من استرجاع حريتهم السابقة وقد قاموا فى الماضى بثورات عديدة ضد الاستبداد التركى فى البلاد العربية

« وقد أدى سوء تصرف الحكومة الحالية فى الآستانة وخضوعها التام لسلطة الالمان الى دخول تركيا مضطرة فى حرب مشؤومة أوصلت الاحوال فيها الى حد النهاية ، فرأى شريف مكة وغيره من الزعماء فى البلاد العربية أن الاوان قد آن لخلع النير التركى من أعناقهم والمناداة باستقلالهم

« وكانت بريطانيا العظمى تعطف دائما على العرب فى أمانيهم ولكن صداقتها التقليدية لتركيا اضطرتها فى الماضى الى البقاء على الحياد . أما الآن وقد انضمت تركيا الى صف الدول الوسطى فقد أصبحت بريطانيا العظمى حرة فى اظهار عطفها على أولئك العرب الذين انخرطوا فى جانب الحلفاء ضد العدو المشترك

« على أن بريطانيا العظمى ستبقى محافظة على سياستها الثابتة فى الابتعاد عن أية مداخلة فى الشؤون الدينيه ، وعلى بذل جهدها فى بقاء الاماكن المقدسه أمينه من كل طارىء خارجى

« ومن النقط التى لا تقبل التغيير والتبديل فى سياسة بريطانيه العظمى

هو أن تبقى هيمنة الاماكن المقدسه فى أيدى حكومة اسلاميه مستقلة

« ولا يخفى ان أحوال الحرب الحاضرة تلقى العقبات الكثيرة والاخطار فى سبيل الراغبين فى القيام بفريضة الحج ولكن العمل الذى قام به شريف مكة يجعل

الأمل كبيراً فى اتخاذ التدابير اللازمة التى تمكن الحجاج فى المستقبل من زيارة الاراضى المقدسة بسلام واطمئنان » اه

(المنار) قد أسمعتنا العاصمة البريطانية عدة أصوات فى المسألة العربية والبلاد الاسلامية المقدسة كان أولها برقية لروتر يؤكد فيها أن انكلترة لاتنوى أن تأخذ شيئاً من بلاد العرب ، ولا تسمح لأحد بالاعتداء على شىء من البلاد الاسلامية المقدسة ثم دار فى هذا المعنى وفى مسألة الخلافة كلام كثير بين أعضاء مجلس الاعيان والنواب ، ولكن لم يكن شىء من ذلك بلاغاً رسمياً فى معنى قطعى يوثق بعدم الرجوع عنه كالبلاغ الذى نشرناه اليوم دون جميع ماسبقه مما هو جدير بأن يحفظ أيضاً وإن لم يبلغ درجة هذا البلاغ فى الاعتبار

فى هذا البلاغ تصريح قلما يصدر من دولة وهو قد صدر عن أدق الدول فى تحرير العبارات الرسمية وجعلها مقيدة لغيرها بقيود قلما يستطاع الفلت منها مع بقائها من فى عالم الاطلاق ، ولا رمى التصريح بأن من أصول السياسة البريطانية التى لاتقبل التغيير والتبديل بقاء الاماكن الاسلامية المقدسة فى يد حكومة إسلامية مستقلة . ومعنى كون هذا لايقبل التغيير والتبديل انه متفق عليه من جميع أحزاب الامة لا أنه رأى الحكومة الحاضرة وأوحزبها - حزب الاحرار - وحده فيكون عرضة للرجوع عنه بتغير الوزارة أو تحولها إلى حزب المحافظين . وبهذا التعبير يظهر غلط الذين قالوا إنه لا يوجد فى السياسة شىء لا يقبل التغيير والتبديل فيكون هذا النص لغواً لا معنى له حتى تفتر به ، و قول هؤلاء حسبنا أنه لايتغير ولايتبدل إلا بتغير رأى الامة الانكليزية كلها وهى أثبت الامم وأبطأها تنقلاً وتحولا فى كل شىء

على أن أهم ما فى هذا التصريح فحواه لا نصه ، وأعنى بفحواه اعتراف الدولة البريطانية باستقلال الدولة الاسلامية التى تستولى على هذه البلاد إذا زالت سيادة الدولة العثمانية عنها بما يخشى أن يحل بها من قدر الله تعالى ، فهو يتناول مسألة الخلافة الاسلامية فى هذه الحالة وهى أهم مايهم جميع مسلمى الارض ، وسنكتب فيها مقالة نبين فيها مايسمح لنا الوقت ببيانه إن شاء الله تعالى

الانتقاد على المنار

سيدى الأستاذ محرر « المنار »

اطلعت على دعوتكم الى نقد « المنار » وعلى فاتحة المجلد التاسع عشر فلم يسعنى إلا تحرير هذا الكتاب لتشيلكم ورائدى الاخلاص وتمضيد ماينفع الناس .

فأما عن نقد « المنار » فحسبى أن أقول إن المجله التى كادت تبلغ ربع قرن من حياتها لابد وأن تكون قد جمعت من أسباب الحياة مافيه الكفايه وإن ما ألم بها أشهراً من العسر المالى الذى يرجع بعضه إلى أزمة الحرب ليس فيه بمجرد مرض عادى إذا عولج علاجاً ناجماً عادت إلى المجله نضرتها السابقه ، وعندى أن هذا المرض محصور فى اضطراب إدارة المجله وفى عدم تمشيها مع الزمن بخلاف ماتنهاق سالف السنين ، ولبيان ذلك أقول ان إدارة المجله على مايظهر لى كثيرة التساهل مع المشتركين فانى لا أتذكر أنى تلقيت أنذاراً من حضرة مدير « المنار » طالباً بدفع الاشتراك كما هى عادة جميع المجلات الراقية عربية كانت أم أفرنجية . وقد كنت أيامى بشدة تدقيق فى حسابى ولكن شواغل الحياة متى تعددت أصابت الانسان بالنسيان وسلبته بعض نظامه مهما يكن يقظا ، فبت ولا أدرى بماذا أدين لكم . والنفقة التى تنفقونها فى سبيل تذكير كل مشترك مرة فى السنة بموعد تجديد اشتراكه لا يساوى شيئا فى جنب القائمة المادية التى تحصلون عليها . ولولا أن هذه الطريقة الادارية ذات نتيجة محسوسة لما استمرت على اتباعها جميع الصحف المتبرة زد على ماتقدم أن المجله لاترسل الىّ بانتظام وهذا ضار بمصلحتها ، لأنى إذا كنت لاأتردد لحظة فى دفع ماتطلبون إلى دفعه حتى ولو اسقطت عددا واحدا فقطعتها فى السنة كلها معتمدا على جمع بقية الأعداد منكم متى عدت الى القاهرة ، فلا شك عندى أن كثيرين غيرى يتنصلون من الدفع بهذه الحجه فتكون خسارتكم جهتئذ غير قليلة . هذه نقطة جوهريه يحسن بسيادتكم النظر فيها لان نظام العمل من أقوى الدعائم لنجاحه .

مباحث المجلة فى تعريفكم ليست قاصرة على فلسفه الدين بل هى تشمل أيضا

شؤون الاجتماع والعمران ، ولكنكم قلما تطبقون ذلك . لا أنكر أنكم أحسنتم كثيراً بنشر المقالات الصحية المفيدة التي وضعها الدكتور توفيق صدقي ، كما أن لكم جولات رائقة في غير مباحث الدين ، ولكني لا أعرف لكم أبواباً ثابتة في كل عدد سوى باب تفسير القرآن ، بخلاف ما أشاهده في مثل «المقتطف» أو «رعمسيس» أو «الهلال» ، وبخلاف ما أشاهده في المجلات الدينية المسيحية الراقية التي تصدر بالانكليزية ، حتى كأن تلك المجلات الدينية تخوض في كل علم وترمي إلى تطبيق العلم على الدين . ومثل هذا التطبيق في رأي بعض المفكرين تضليل . ولكني لا أرى ذلك إذا كان المطبق مخلصاً في عمله ، لأن رجل الدين متى اعتقد أن العلم هو أحد أركان الدين وجب عليه أن يجمع بينهما حتى يخلص المعتقدات الدينية من خرافات الجهلاء المدعين الذين يتاجرون باسمها أو يبنون شهرتهم الكاذبة على حسابها ، وقد لاحظ كثيرون بحاشيتكم ايضاح «المنار» بالصور حتى رسوم من توفوا من علماء الاسلام فعد ذلك دليلا على كره الاسلام التصوير في العصر الحاضر أيضاً

وأما من دار الدعوة والارشاد التي تقصدون بها تربية أساتذة لتهذيب العامة ونشر المبادئ الأدبية الدائمة والقضاء على أباطيل الأولين ، فلا يحاربها رجل بعيد النظر حتى ولا من أنكر ذات الخالق ، لأني إذا قلت أن الطبقة المتعلمة من الامة قد تجد من تعليمها العالي المبادئ الأدبية الكافية لصيانة أخلاقها ولو كانت غير متدينة بدين سماوي ؛ فيصعب علي جداً أن أتصور جواز هذا الحكم على عامة الناس الذين لا تثمر مبادئ الالحاد بينهم إلا فوضى أدبية مريعة . فيجب إذن تعضيد رؤساء الأديان الذين يسيرون بها دائماً إلى الامام وتصدم العلم والتربية : وإذا عد نفر من الناس أن صلاح العالم هو في القضاء على الأديان فلا أدري كم بعد مئات من السنين يتحقق هذا الحلم . فاذا فرضنا أن تحقيقه في حكم المستطاع — والناس كثيراً ما يختلفون حتى على البديهيات . وفي خلال كل هذا الزمن يلبث الدين قرين الثقة من مشخصات الأمة ومظهر من مظاهرها — فحرى بكل ذي وطنية صحيحة أن يمعن النظر في هذه المسألة الحيوية .

هذا وإني لا أذهب مذهب مكاتبكم الفاضل في خاتمة المجلد السابق بل لا

أشك في حسن مستقبل الشرق ، ولكل أمة دور من صعود وهبوط ، ولا خوف حينئذ على مثل « المنار » أو « دار الدعوة والارشاد » فلابد أن يأتي وقت قريب يعطى فيه خليفة الامام محمد عبده حقه من الانصاف على ماخدم به الأمم الاسلامية من الارشاد النافع حتى صارت فتاويه مرجع كل مصلح اجتماعي جرئ ، وبات « تفسير المنار » معدوداً أعظم تفسير للقرآن الشريف لجمعه بين علوم السلف والخلف ، ولما تضمنه من خلاصة العلوم الحديثة التي يجب أن تكون هدى المفسر لكتاب يمد قانون الله الذي خلق الكون ودبره . فما العلوم الطبيعية إلا خلاصة ما وصل اليه العقل الانساني في درس سنن الكائنات بعد تدقيق وأناة . لهذا كانت تفاسير القرآن التي خطها الجاهلون بهذه العلوم أولى بالتلف منها بالصيانة ، فانها عار العلم والدين معاً

فاسمح لي إذاً يا سيدي الأستاذ أن أهنئكم على استقبال « المنار » لسنة جديدة من سني حياته [illegible] ن الكون [illegible] ل متواصل له ونجاح ثابت ونصرة للفضيلة والآداب

نادي مستشفى سانت جورج بلندن أحمد زكي أبو شادي (طبيب)

(المنار) نشرنا رسالتكم برمتها وان كان موضوع باب الانتقاد على المنار خاصاً بالانتقاد مسائله دون إدارته . ونشكر لكم حسن ظنكم وثناءكم وكل ما كتبتم عن الاستقلال والاخلاص ، ولا أذكر ما عرض من الخلل على إدارة المنار ولاسيما إهمال التحصيل ، وأذكر من سببه خيانة بعض الوكلاء وترك الاشراف عليها ، وتعدد من تولى أمرها منذ الانقلاب العثماني الذي فتح لي أبواب الاسفار الى سورية ثم الآستانة ثم الهند وعمان والعراق ، والاشتغال بمشروع الدعوة والارشاد ، وسنعود إلى الانتظام في هذا العام إن شاء الله تعالى

وأما سبب قلة تنوع موضوعات المنار كتنوع غيره من المجلات فهو أن محرره واحد له أعمال كثيرة أخرى ومحرروها كثيرون . ولا يتسع هذا الجزء للخوض معكم في سائر المسائل التي أودعتموها في رسالتكم المفيدة